
SALAH JARRAR
دراسات
STUDIES
رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
د. صلاح جرّار
زمانُ الوَصْل
دراساتٌ في التفاعُل الحضاريّ والثقافيّ في الأندلسْ




زمان الوصل
دراسات في التفاعل الحضاري والثقافي في الأندلس

مشروع مكتبة الأسرة ومهرجان القراءة للجميع بمبادرة وزارة الثقافة وبرعاية جلالة الملكة رانيا العبدالله المعظمة (حفظها الله).

• زمان الوصل
• المؤلف : د.صلاح جرّار
• الناشر: وزارة الثقافة
عمان - الأردن
شارع وصفي التل
ص. ب ٦١٤٠ - عمان
تلفون: ٥٦٩٦٢١٨/ ٥٦٩٩٠٥٤
فاكس: ٥٦٩٦٥٩٨
Email: info@culture.gov.jo

• **الطباعة: مطبعة السفير ٤٦٥٧٠١٥**
• رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠٠٩/٩/٣٨٧٤)



د. صلاح جرّار

زمان الوصل

دراسات في التفاعل الحضاري والثقافي في الأندلس



مدخل

لم تكن القوة العسكرية الوسيلة الوحيدة التي استطاع العرب والمسلمون عن طريقها بسط نفوذهم على شبه الجزيرة الإيبيرية (٩٢ ـ ٨٩٧هـ/ ٧١١ ـ ١٤٩٢م) ، فالتفوق العسكري في تلك الأيام كان يقوم على التفاوت العددي للجيوش وتدريبها وتنظيمها ، وليس على أنواع الأسلحة التي لم يكن لها دورٌ حاسمٌ في الحروب .

ولم يكن الفاتحون ، من العرب والمسلمين ، في بداية استيلائهم على الأندلس أكثر عدداً أو تدريباً أو تنظيماً من الجيوش الإسبانية التي واجهوها ، بل كانوا أقل منها بكثير بحسب الروايات التاريخية .

لقد أدرك الفاتحون منذ البداية أن القوة العسكرية وحدها قد تحقق نتائج سريعة ، لكنها مؤقتة سرعان ما تتلاشى عندما يملك الطرف المغلوب القوة العسكرية الكافية لتحقيق التكافؤ العسكري مع الغالب ، ولذلك فقد لجأوا من أجل حماية إنجازاتهم العسكرية إلى أدوات ثقافية تحترم الإنسان وتحقق مصالحه وتصون كرامته وحقوقه الإنسانية والثقافية والدينية المختلفة . وقد ساعد ذلك على تقبُّل أهالي البلاد الأصليين لهم وتعاونهم معهم وإعجابهم بما يحملونه معهم من مبادىء وقيم إنسانية وروحية وفكرية رفيعة . ونجح الفاتحون بذلك من التمكين لأنفسهم في قلوب أهالي البلاد المفتوحة وعقولهم

ووجدانهم ، وبخاصّة بعدما قدّموه من نموذج رفيع في السلوك الإنساني وتنظيم المجتمعات وبناء الدول ، مع ما أبدوه من التسامح مع أبناء الطوائف والأديان الأخرى ومنحهم حرية العبادة والاعتقاد والعادات والتقاليد التي توارثوها عن أسلافهم . وقد عزّز ذلك فيما بعد ، لدى سكان الأندلس كافة شعورهم بالمساواة والعدالة ونيل الحقوق ، وأدّى إلى تعميق شعور الأندلسيين بالانتماء إلى الأندلس والتعصّب لها ، وإلى إطلاق الطاقات الفكرية والإبداعية ، مما كان له دورٌ بالغ الأهمية في تشييد الحضارة الأندلسية التي أسهم في تأسيسها مختلف العناصر السكانية من عرب وبربر وإسبان وصقالبة وسواهم ، كلّ في مجال اختصاصه ومعرفته واهتمامه ، وقد صادف ذلك تشجيعاً بالغاً من أمراء الأندلس وسلاطينها لكل من له مساهمة أو باعٌ في أي حقل من حقول المعرفة والإبداع والتحضّر .

إن في التجربة الحضارية الأندلسية دليلاً ساطعاً على أنّ اعتماد الوسائل العسكرية وحدها لبسط النفوذ وفرض السيطرة هي سياسة غير ناجعة ، وأن الاقتصار على تطوير الأسلحة والتمادي في التسلّح وإقامة الحصون والخنادق والمعسكرات وفتح المعتقلات ، لا يضمن نجاحاً ولا يحقق سيطرة أو نفوذاً على المدى البعيد ، لأنه يفتقر إلى أدوات الانسجام والتفاعل مع المجتمع المحلّي أو المستهدف ، إذ يظلّ الحكم العسكري في مثل هذه الحال غرساً بلا جذور يسهل اقتلاعه وإزالته عندما تحين الفرصة ، لأنه لا يملك الشروط الموضوعية للبقاء والاستمرار .

إنَّ ما شرعه العرب والمسلمون في الأندلس جعل الوجود العربي في تلك الأرض زرْعاً له جذوره الضاربة في أعماق التربة الأندلسية والأوروبية ، وله أغصانه وأوراقه وأزهاره وثماره ، لأن هذا الوجود لم يكن قائماً على بناء القوة العسكرية الأندلسية فقط ، بل قام كذلك على التواصل العقلي والروحي والوجداني والإنساني مع مختلف العناصر السكانية التي كانت تعيش على أرض الأندلس ، وكذلك مع جيران الأندلس من الأوروبيين ، وقام كذلك على نشر القيم والأفكار والمبادئ السامية والمعرفة والإبداع التي اتخذت من النشاط العلمي والأدبي والفكري والعمراني والفني سبيلاً للتعبير عنها .

لقد قامت الحضارة العربية بصورة أساسية على طلب العلم والمعرفة وتطويرهما ونشرهما ، ومثلما نشر العرب علومهم ومعرفتهم في الأندلس وجوارها الأوروبي ، فإنهم لم يضيّعوا فرصة الاستفادة من العلوم والمعارف التي كانت سائدة لدى الإسبان والأوروبيين ، وهذا أمرٌ طبيعي من قوم اتخذوا من مقولة : «اطلبوا العلم ولو في الصين» شعاراً لهم ، وهم الذين كان العالم منهم يسافر من أقصى الأرض إلى أقصاها سعياً إلى لقاء شيخ من شيوخ العلم أو بحثاً عن رواية حديث نبوي أو قصيدة أو وجه من وجوه اللغة والإعراب . ولذلك فإنهم لم يجدوا حرجاً في إغناء معرفتهم بما وقفوا عليه من علوم ومعارف لدى أهل إسبانيا وجيرانهم الأوروبيين ، فأعطوا وأخذوا ، وأثّروا وتأثّروا ، مستفيدين من فرص الاتصال المختلفة التي أتيحت لهم مع الإسبان عن طريق الاختلاط المباشر ، ومع الأوروبيين عن طريق

الحروب والتجارة والأسرى والرحلات والجوار والمصاهرة والسفارات والتبادل العلمي والتزاور ، حتى غدت الأندلس إبّان الحكم العربي والإسلامي حلقة اتصال رئيسية بين الثقافة العربية والثقافة الغربية ، وساحة لتمازج الحضارات وتفاعل الثقافات .

لقد كان لاختلاط عناصر سكانية مختلفة على أرض الأندلس وتعايشها دورٌ أساسي في تحقيق التمازج الثقافي بين تلك العناصر ؛ فالمسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام في الأندلس إنّما أضافوا بذلك ثقافة جديدة إلى ثقافتهم الأصلية ، فامتزجت الثقافتان معاً في شخوص هؤلاء المسَالمة ، وحتى المسيحيون الذين ظلّوا على دينهم وسُمّوا بالُمعاهدة لأنهم عاهدوا المسلمين على الانضواء تحت ظل الدولة الجديدة ، استوعبوا الثقافة العربية والإسلامية وتمثّلوها لغة وأدباً وعلماً ونظام حكم وحياة . وكذلك العربُ والمسلمون الذين آثروا البقاء تحت الحكم الإسباني بعد سقوط مدنهم وهم ما يعرفون بالمدجّنين ، وبعضهم أعلن ارتداده عن الإسلام إلى المسيحية ، هؤلاء أيضاً كانوا يمثلون تمازج الثقافتين معاً .

وكان للأسرى والسبايا والجواري والرقيق من الصقالبة وسواهم دورٌ بارزٌ في نقل ثقافة كلّ طرف إلى الطرف الآخر ، فقد كان هؤلاء الأسرى يستخدمون في قصور السلاطين وعلية القوم من الطرفين أو يباعون في أسواق الرقيق ، ولذلك قلّما نجد بلاطاً من بلاطات ملوك الإسبان والأوروبيين أو نبلائهم يخلو من الأسرى المسلمين ، وقلّما

نجد أميراً من أمراء الأندلس أو كبرائها يخلو قصره من الأسرى الإسبان أو الأوروبيين .

ولم تقتصر المشاركة في الحروب التي دارت على أرض الأندلس أو في ثغورها على المسلمين والإسبان ، بل نجد مشاركة للدول الأوروبية على شكل إرسال جيوش أو متطوعين في الحرب ضد الأندلسيين ، فعندما احتلّ ألفونسو السادس ملك قشتالة مدينة طليطلة سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥م اشترك معه في الاستيلاء على المدينة فرسان ألمان وإيطاليون وفرنسيون ، بل إنّ أوّل أسقف للمدينة بعد سقوطها كان فرنسياً . وعندما حاصر الإسبان لشبونة ، عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٧م واحتلوها دخلها جنود من الإنجليز والألمان والفرنسيين وعيّنوا لها أسقفاً إنجليزياً(١) .

وكان للنساء دورٌ كبير في نقل التأثيرات الثقافية والأدبية بين الطرفين ، فنجد قصور السلاطين الأندلسيين تعج بالجواري والسبايا الإسبانيات والأوروبيات ، مثلما نجد قصور الملوك الأوروبيين تشتمل على نساء مسلمات من أصول أندلسية ومغربية . ولم يقتصر دور هؤلاء النسوة على نقل موروثهنّ الثقافي والأدبي إلى الطرف الآخر ، بل إن زواجهن وإنجابهن من سادتهنّ أو من أبناء المجتمع الجديد الذي انتقلن إليه كان يعمق من الامتزاج الثقافي بين عناصر النسيج

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ، زيغريد هونكه ، ترجمه عن الألمانية فاروق بيضون وكمال الدسوقي ، ط٢ ،المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ١٩٦٩ ، ص٥٣٢ .

الاجتماعي الأندلسي ، وليس أدلّ على ذلك من كون كثير من أمراء الأندلس وخلفائها من أبناء الجواري الإسبانيات والأوروبيات . وقد ذكر أبو محمد ابن حزم ذلك عندما أشار إلى الخلفاء الأمويين في الأندلس قائلاً : «ولا وليها من بني أميّة بالأندلس ابن حرّة أصلاً»[١] .

وفي حديثه عنهم في رسالته طوق الحمامة يقول ابن حزم «وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لدن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلاّ أشقر ، نزاعاً إلى أمهاتهم ، حتى صار ذلك فيهم خلقة»[٢] .

إن التمازج الثقافي الذي شهدته الأندلس إبان الحكم العربي والإسلامي لها ، بلغ حدّاً جعل الشباب المسيحيين في إسبانيا في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي يقبلون على قراءة الشعر العربي وتذوقه ونظمه بأسلوب عربي جميل ومنمق .

وقد اشتكى ألفارو القرطبي أسقف قرطبة آنذاك من هذه الظاهرة قائلاً :

«إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقضوها ، وإنّما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً . وأين تجد الآن واحداً من غير رجال

---

(١) رسائل ابن حزم ٢/ ١٠٤ (تحقيق الدكتور إحسان عبّاس ، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨١) .

(٢) رسائل ابن حزم ١/ ١٣٠ ـ ١٣١ (من رسالة طوق الحمامة) .

الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟ ومَنْ سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل؟ يا للحسرة! إن الموهوبين من شبّان النصارى لا يعرفون اليوم إلاّ لغة العرب وآدابها ، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم ، وهم ينفقون أموالاً طائلةً في جمع كتبها ، ويصرّحون في كلّ مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب ، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم . يا للألم! لقد أنسي النصارى حتّى لغتهم ، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحبٍ له كتاباً سليماً من الخطأ ، فأما عن الكتابة في لغة العرب فإنك واجد فيهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منمق ، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالاً»[١] .

---

(١) انظر :

- The Poetry of the Arabs of Spain, by G.J. Adler, P.46 , ed. NewYork 1867.
- A literary History of the Arabs, by: R.A. Nicholson, P414 ,ed. 1929

ـ تاريخ الفكر الأندلسي ، جونثالث بالنثيا ص ٤٨٥ ، ترجمة حسين مؤنس ، ط١ ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٥ .

ـ حضارة العرب في الأندلس ، ليفي بروفنسال ، ص٧٢ ، ترجمة ذوقان قرقوط ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ .

ـ شمس العرب تسطع على الغرب ، زيغريد هونكه ، ص ٥٢٩ .

وفي مقابل ذلك كان العرب يعرفون اللغة اللاتينية المستخدمة في إسبانيا ويتحدثون بها إلى جانب العربية في مجالسهم وأسواقهم ، وهو ما نجد آثاره في الموشحات والأزجال والأمثال وبعض الروايات الأدبية والتاريخية .

ونجد ابن خلدون في كتاب المقدمة يشير إلى مدى تأثر الأندلسيين بالإسبان عندما يقول : «كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة ، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت»(١) .

إنّ اللغة العربية في الأندلس لم تكن لغة العرب وحدهم بل كانت لغة الأندلسيين جميعاً عرباً وبربر وإسبانا وصقالبة ويهوداً ومسيحيين ، لأنها لغة الدولة الأندلسية والمجتمع الأندلسي والثقافة الأندلسية الرفيعة ، ولذلك فإنّ من الطبيعي أن نجد أدباء أندلسيين مشهورين من أصول إسبانية مثل ابن غَرْسِية وابن القُوطِية وابن القَبَطُرْنَة وابن بَشْكُوال وسواهم ، أو من أصول بربرية مثل عباس بن فرناس وابن عائشة وغيرهما ، أو من أصول يهودية مثل ابن سهل الإشبيلي وابن حَسَداي وغيرهما .

ولم يقف التفاعل الثقافي بين هذه العناصر التي تشكل النسيج الاجتماعي الأندلسي عند حدّ اللغة ، بل نجد أثره في جوانب الحياة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٢/ ٤٥٠ ـ ٤٥١ .

كافة من علوم وآداب ولباس وغناء وموسيقى وعمران ومأكولات وزراعة وغيرها.

ومثلما لم تكن اللغة العربية في الأندلس لغة العرب وحدهم، فكذلك لم تكن صفة «أندلسي» تطلق على العربي فقط دون سائر الأجناس المكوّنة للنسيج الاجتماعي الأندلسي، بل كانت تطلق على كلّ من يقيم في الأندلس عربياً أو مستعرباً أو بربرياً أو صقلبياً أو مسيحياً أو مسلماً أو يهودياً أو من نشأ في الأندلس أو طرأ عليها مثل زرياب وأبي علي القالي وابن شرف القيرواني والحصري القيرواني، ويدلّ على ذلك مؤلّفات الأندلسيّين التي عدّت كل من ولد ومات في الأندلس وكلّ من طرأ عليها أو عمل لدى سلاطينها أندلسياً، كالذي نجده في كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام الشنتريني، وكتاب أدباء مالقة لابن خميس، وكتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، وكتاب قلائد العقيان ومحاسن الأعيان للفتح بن خاقان وغيرها من كتب التراجم والرسائل التي ترجمت لأدباء وكتّاب وأعلام من أصول عربية وغير عربية ممن عاشوا في الأندلس أو وفدوا إليها، وعدّتهم جميعاً من الأندلسيين.

ومن المؤلفين الأندلسيين الذين حاولوا تعريف من هو أندلسي ابن حزم القرطبي في رسالته في فضائل أهل الأندلس حيث يقول: «... وذلك أن جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقين، دون محاشاة أحد، بل قد تيقنا إجماعهم على ذلك، متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقرّ بها، ولم يرحل عنها رحيل تركٍ لسكناها

إلى أن مات ، . . .فمن هاجر إلينا من سائر البلاد فنحن أحقُّ به ، وهو منّا بحكم جميع أولي الأمر منّا ، الذين إجماعُهم فرضٌ اتّباعه ، وخلافُه محرَّمٌ اقترافُه ، ومَنْ هاجر منّا إلى غيرنا فلا حظَّ لنا فيه ، والمكان الذي اختارهُ أسْعَدُ به ، فكما لا ندع إسماعيل بن القاسم (أبو علي القالي) ، فكذلك لا ننازع في محمد بن هانىء سوانا . . .»[١] .

ومما يلفت النظر لدى أهل الأندلس أن تعصّبهم لوطنهم جعلهم يدافعون عن كل ما يمت للأندلس أرضاً وحضارة وثقافة وإنساناً ، وهذا ما نلحظه جليّاً لدى ابن بسّام الشنتريني وابن حزم القرطبي وأبي الوليد الشَقُنْدي وأبي الحسن بن سعيد الأندلسي وابن عبد الغفور الكلاعي وغيرهم .

إنّ انتشار قيم العدل والمساواة والتسامح ومراعاة الحريّات الدينية واحترامها لدى عناصر المجتمع الأندلسي كافة ، كان من الأسباب التي جعلت كلّ أندلسي مهما كان أصله ودينه يشعر بانتماء شديد إلى الأندلس وطناً وثقافة وسلطة . ولذلك فإنه ليس من الغريب أن نجد وظائف الدولة الأندلسية من حجابة وكتابة وأعمال ديوانية وغيرها يتولاها الصقالبة والموالي والمسيحيون واليهود والمستعربون والمولدون من أهل الأندلس ، وليس من الغريب أن نجد من قادة الجيش الأندلسي الذين يغيرون على الممالك الإسبانية من هم من أصول

---

(١) رسائل ابن حزم ٢/ ١٧٥ ـ ١٧٦ (من رسالته في فضائل أهل الأندلس) .

إسبانية وأوروبية ، أو أن نجد أمراء الأندلس وخلفاءها يتخذون لأنفسهم جيوشاً من الصقالبة للدفاع عن الأندلس وشن الغارات على الممالك الإسبانية وتحقيق الانتصارات ، كما فعل المنصور محمد بن أبي عامر الذي دوّخ أراضي الإسبان المجاورة بجيش معظمه من الصقالبة .

وليس من الغريب كذلك أن نجد كثيراً من الزعماء الدينيين المسيحيين واليهود في الأندلس يعملون سفراء ومترجمين لملوك الأندلس عند ملوك إسبانيا وأوروبا ، ويتفانون في الإخلاص للأندلس وسلاطينها في أثناء تأديتهم للوظائف الموكولة لهم ، مؤثرين انتماءهم للأندلس على أصولهم الإسبانية والأوروبية .

إنّ هذه الروح الأندلسية الصافية ، جعلت مسلمي الأندلس يبادلونْ العناصر السكانية الأخرى التي يتألف منها النسيج الاجتماعي الأندلسي احتراماً باحترام وعناية بعناية ومحبة بمحبة وتعاوناً بتعاون ومشاركة في الأفراح والأحزان بمشاركة ، وتعايشاً بتعايش وتفاهماً بتفاهم وتواصلاً بتواصل ، مّما نجم عنه شيوع بعض المظاهر التي تمّثل هذا التمازج الثقافي والحضاري بين سكان الأندلس كافة . ومن هذه المظاهر على سبيل التمثيل لا الحصر احتفاء المسلمين بأعياد المسيحيين ، واستخدامهم للتقويم المسيحي إلى جانب التقويم الهجري .

أما قيام العلاقات الثقافية بين الأندلس والدول الأوروبية المجاورة لها والبعيدة عنها ، فقد كان نتيجة طبيعية لما حدث من تمازج ثقافي وحضاري داخل الأندلس نفسها بين العرب والمسلمين والسكان الأصليين من أصول إسبانية وأوروبية .

ولذلـك فإنّ هذا الكتاب يحاول رصد بعض مظاهر التمازج الثقافي داخـل المجـتمع الأندلسـي ، مثـلما يحاول تقصّي بعض صور العلاقات الثقافـية الـتي نشـأت بـين الأندلـس ـ إبـان الحكم الإسلامي ـ والدول الأوروبية .

ويشتمل هذا الكتاب على ثلاثة مباحث رئيسية :

الأول : العلاقات الثقافية بين الأندلس وأوروبا .

الثاني : احتفاء مسلمي الأندلس بأعياد المسيحيين .

الثالث : عناية الأندلسيين بالتأريخ المسيحي .

والله المستعان

أ .د . صلاح جرّار

٢٠٠٤/١/١

المبحث الأول

العلاقات الثقافية بين الأندلس وأوروبا

مقدمة:

تشكّل العلاقات الثقافية في الذاكرة الإنسانية عنصراً أشدّ رسوخاً وأطول بقاء واستمرارا من تلك العلاقات التي تفرضها مقتضيات السياسة وشهوة المال ، بل إنّ العلاقات السياسية والتجارية التي لا تستند إلى مقوّمات ثقافية ، هي علاقات لا يبقى لها في الذاكرة الإنسانية أثرٌ يستحق الذكر ، ولا تستطيع أن تسهم في تحقيق أي تقارب روحي بين الشعوب لأنها تقوم على المصالح الماديّة ، وهي مصالح مؤقتة سريعة الزوال .

وتشكل الدراسات في موضوع حوار الثقافات مدخلاً مهما لتمهيد الطريق أمام الساعين إلى إقامة علاقات إنسانية نموذجية بين الشعوب ، ولا سيّما في ضوء اتساع قاعدة الدعوات التي تنادي بصراع الحضارات .

ولعل من أهمّ مداخل البحث في حوار الثقافات النبش في التجارب التاريخية والحقب الزمنية التي تجاورت فيها ثقافات مختلفة ونجحت في إيجاد أسس للحوار والتعايش .

ولعل تجربة الحكم العربي والإسلامي للأندلس طوال ثمانية قرون متتالية (٩٢ ـ ٨٩٧هـ/ ٧١١ ـ ١٤٩٢م) ومجاورة العرب والمسلمين لدول أوروبا بصورة مباشرة على الرغم من الاختلاف العرقي والديني واللغوي والثقافي ، تجربة تستحق النظر والتأمل من زاوية حوار الثقافات وتعايشها .

وهذه التجربة ذات شقين : الأول امتزاج الثقافات داخل المجتمع الأندلسي نفسه بصورة مباشرة . والثاني اتصال الثقافة الأندلسية بثقافات الدول الأوروبية مثل فرنسا وروما واليونان والقسطنطينية وإنجلترا وألمانيا وغيرها ، وهو اتصال أقل مستوى وشأنا من الامتزاج الثقافي الذي شهدته أرض الأندلس نفسها بين الثقافة الأوروبية التي كان يحملها الإسبان من أهالي البلاد المفتوحة والثقافة العربية الإسلامية التي حملها الفاتحون .

وتقتصر هذه الدراسة على تسليط الضوء على جوانب من العلاقات الثقافية بين الأندلس والدول الأوروبية المجاورة ، والتركيز على قنوات الاتصال الثقافي بين الجانبين وأوجه ذلك الاتصال ونتائجه .

قنوات الاتصال الثقافي بين الأندلس والأوروبيين

لقد تهيّأ للأندلسيين وجيرانهم الأوروبيين من فرص الالتقاء والتواصل الثقافي وقنواته ما عزّ نظيره في كثير من الحالات المماثلة ، وكان من أهم هذه القنوات : التجارة والسفارات والرحلات والازدواجية الثقافية لدى المستعربين والمدجنين والرقيق والأسرى والسبايا والجواري ، وغير ذلك .

١ ـ التجارة :

لم يتوقف النشاط التجاري بين الأندلس وأوروبا حتى في ذروة الصراع العسكري بين الطرفين ، وكان التجار ينقلون ثقافة كل طرف إلى الطرف الآخر مثلما كانوا ينقلون السلع التجارية والبضائع . وقد نصّت كثير من المعاهدات التي كانت تبرم بين الطرفين على ضرورة تسهيل حركة التجار وتوفير الحماية لهم[١] . كما كان بعض السفراء والملوك الأوروبيين الذين يزورون الأندلس يصطحبون معهم التجار لعقد الصفقات التجارية ، ففي سنة ٣٣١هـ قدم إلى باب الناصر لدين الله رسول لصاحب جزيرة سردانية يخطب الصلح والألفة وقدم معه تجار أهل مَلْفطْ المعروفون بالأندلس بالملفطانيين ، بضروب من تجاراتهم النفيسة من سبائك الفضة الخالصة والديباج وغير ذلك ، مما أُحرزت منه الفائدة ، وحَسُنَتْ به المنفعة[٢] .

وكانت هناك مدن كثيرة في أوروبا والأندلس يجتمع فيها التجار من أرجاء الأرض ومنهم تجار مسلمون وأوروبيون ، فمدينة مونبليه Montpellier الفرنسية كان يجتمع فيها التجار من نصارى ومسلمين من مختلف الأمصار من المغرب ورومة وفرنسة وإسبانيا وإنجلترا من الذين يتحدثون بكل لغة ولسان[٣] . وكانت مدينة ألمرية الأندلسية

---

(١) انظر المقتبس لابن حيّان ٥/ ٤٤٩ ـ ٤٥٥ ، ووثائق أراغون ص١ ، ص٤ .

(٢) انظر المقتبس لابن حيان ، ٥/ ٤٨٥ .

(٣) رحلة بنيامين التطيلي ، ٥٣ .

ملتقى لتجار المسلمين والروم ومراكبهم[١] . وكان نهر الوادي الكبير طريقاً لسفن الإفرنج التي تحمل البضائع إلى إشبيلية[٢] . كما كان تجار الروم يشاركون أهل الأندلس في بعض احتفالاتهم ، وقد أورد لسان الدين بن الخطيب في مقامته المسمّاة «خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف» وصفا لمشاركة تجار الروم في ألمرية في استقبال السلطان الغرناطي أبي الحجاج يوسف الأول في جولة له على الثغور ، فيقول «وتأنّق من تجار الروم من استخلص العدل هواه ، وتساوى سره ونجواه ، في طرق من البر ابتدعوها ، وأبواب من الاحتفاء شرعوها ، فرفعوا فوق الركاب المولوي على عمد الساج ، مظلة من الديباج ، كانت على قمر العلياء غمامه ، وعلى زهر المجد كمامه ، فراقتنا بحسن المعاني ، وأذكرتنا قول أبي القاسم بن هاني :

وعلى أمير المؤمنين غمامةٌ نشأت تظلّل وجهه تظليلا
نهضت بعبء الدرّ ضوعف نسجُهُ وجرت عليه عسجداً محلولا

إلى غير ذلك من أروقة عقدوها ، وكرامة أعدّوها . .»[٣]

---

(١) نفح الطيب ٣/ ٥٧١ ، الأندلس في اقتباس الأنوار ٥٩ ، ١٦٤ ويصفها الرشاطي وابن الخراط بأنها يجتمع بها القاصي والداني والعربي والعجمي ، فكأنها بقعة محشر يجتمع فيها لكل متجر . ويذكر الإدريسي أنه كان بألمرية (٩٧٠) فندقاً (نزهة المشتاق ١٩٨) .

(٢) كتاب الجغرافيا لابن سعيد ١٦٧ .

(٣) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ٤٣ ـ ٤٤ .

وكانت السلع التي يحملها التجار الروم والمسلمون إلى أرض الطرف الآخر تمثّل في بعض جوانبها بعض خصوصيتهم الثقافية وإبداعاتهم الفنية ؛ ففي احتفال السلطان محمد الخامس الغني بالله ملك غرناطة بالمولد النبوي الشريف سنة ٧٦٤هـ يتحدث ابن الخطيب عن استخدام «أوعية وأطباق خشبية رومية مما يطرفُ بها تجار جنوة وما يصاقبها من الجزائر الروميات ، ملبسة بالورق الذهبية مرصعة بالزجاج المرسوم فيه صور الحيوان والأشجار . . .»(١) .

ولا شكّ أنّ ما كان يحمله التجار المسلمون إلى أوروبا من بسطٍ وأقمشةٍ وتحفٍ فنية ، كانت تمثل بدورها جوانب من الشخصية الثقافية والفنية الأندلسية .

٢ ـ السفارات :

كان لنشاط السفارات بين الأندلس وأوروبا دور كبير في التبادل الثقافي ، أولا بما كان السفراء ينقلونه من معلومات ورسائل وما يعبّرون عنه من آراء ومواقف ومعتقدات عن الطرف الذي يمثلونه ، وثانياً بما كانوا يحملونه إلى الطرف الآخر من هدايا وتحف تصوّر ثقافة الجهة التي يمثلونها .

وقد نشطت حركة السفراء بين الأندلس ودول أوروبا طوال مدة الوجود الإسلامي في الأندلس ، فكان الأندلسيون يتبادلون السفراء مع القسطنطينية وروما وفرنسا وإنجلترا وألمانيا والنرويج والدانمارك

---

(١) نفاضة الجراب ٣/ ٢٧٨ .

والسويد وقشتالة وغليسية وأراغون والبرتغال وغيرها . وكان حرص كلا الطرفين على اختيار سفراء ذوي قدرات خاصة ومؤهّلات ومواصفات متميّزة من ثقافة عالية وحنكة ودهاء وذكاء وفطنة عاملاً مهماً من العوامل التي تساعد على إنجاز المساعي التي يقومون بها ، إلى جانب تحقيق التقارب الثقافي بين الطرفين من خلال إعجاب الملوك بثقافة من يفد إليهم من هؤلاء السفراء ، وبخاصة أن بعض هؤلاء السفراء كان يقيم عدة أشهر وربما سنة أو أكثر في بلاط الملك الذي ينتدب إليه .

وفي هذا السياق نشير إلى يحيى بن الحكم الغزال الجياني (١٥٠ ـ ٢٥٠هـ) سفير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ/ ٨٢٢ ـ ٨٥٢م) لدى إمبراطور القسطنطينية وملك النورمان ، فقد ذكر ابن دحية في كتاب المطرب أن عبد الرحمن الأوسط اختار يحيى الغزال لهذه السفارة لما كان عليه من «حدّة الخاطر ، وبديهة الرأي ، وحُسْنِ الجواب ، والنجدة والإقدام ، والدخول والخروج من كلّ باب»[١]. وذكر ابن حيّان القرطبي أن الغزال كان «حكيم الأندلس وشاعرها وعرّافها»[٢]. وبسبب هذه الميزات لدى الغزال فقد أعجب به ملك الروم ، وخفّ على قلبه ، وطلب منه أن ينادمه[٣]. كما أعجبت به نود (تود)

---

(١) المطرب ١٣٩ .

(٢) نفح الطيب ٢/ ٢٥٤ .

(٣) نفسه ٢/ ٢٥٨ .

زوجة ملك المجوس فكانت تجالسه وتحاوره وتستمتع بسماع شعره فيها بعد أن يترجمه لها المترجم(١).

وقد أتاح إعجاب الملك وزوجته بالغزال فرصة مناسبة للتبادل الثقافي ، فمن ناحية ذكر تمام بن علقمة أن زوجة ملك المجوس أولعت بالغزال «فكانت لا تصبر عنه يوماً حتى توجه فيه عندها يحدثها بسير المسلمين وأخبارهم وبلادهم وبمن يجاورهم من الأمم»(٢). ومن ناحية أخرى كان للغزال مع هؤلاء الروم «مجالس مذكورة ، ومقاومُ مشهورة ، في بعضها جادل علماءهم فَبَكّتَهم وفي بعضها ناضل شجعانهم فاثْبَتهم»(٣). وكان في أثناء إقامته بينهم يحدثهم عن عادات المسلمين وآرائهم إزاء كثير مما يعرض له ، ويحدثونه عن عادات المجوس والروم إزاء ما يرونه من الغزال. وقد حظيت سفارة الغزال بعناية كثير من الدارسين الأوروبيين والعرب ، وصدرت عنها عشرات الدراسات ، وذلك لما تنطوي عليه من قيمة كبيرة في مجال التواصل الثقافي والمعرفي بين الأندلس وأوروبا(٤).

ومن العلماء الذين اعتمد عليهم ملوك الأندلس في السفارة بينهم وبين ملوك أوروبا أبو طالب ابن سبعين ولسان الدين بن الخطيب

---

(١) نفسه ٢/ ٢٥٧ـ ٢٥٩ ، المطرب ١٤٢ .

(٢) المطرب ١٤٣ .

(٣) نفسه ١٤٢ .

(٤) انظر مثلاً :

W.E.D. Allen. The poet and the Spae- Wife, an attempt to reconstruct Al-embassy to the wikings. Dublin, 1960.

وعبد الرحمن بن خلدون وغيرهم كثير . أما أبو طالب ابن سبعين فقد روى الشيخ أبو البركات البلفيقي قال : حدثني بعض أشياخنا من أهل المشرق أن الأمير أبا عبد الله بن هود سالم طاغية النصارى ، فنكث به ، ولم يف بشرطه ، فاضطره ذلك إلى مخاطبة القس الأعظم برومية ، فوكل أبا طالب ابن سبعين أخا أبي محمد عبد الحق بن سبعين في التكلم عنه ، والاستظهار بين يديه ، قال : فلما بلغ ذلك الشخص رومية ، وهو بلد لا يصل إليه المسلمون ، ونظر إلى ما بيده ، وسئل عن نفسه ، فأخبر بما ينبغي ، كلم ذلك القس من دنا منه بكلام معجم ترجم لأبي طالب بما معناه : اعلموا أن أخا هذا ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه[١] .

أما لسان الدين بن الخطيب ، فقد نال تقديراً عند سلطان قشتالة ، وقد حكى ابن حجر عن بعض الأعيان أن ابن الأحمر وجهه إلى ملك الإفرنج في رسالة ، فلما أراد الرجوع أخرج له رسالة لابن الخطيب تشتمل على نظم ونثر ، فلما قرأها قال له : مثل هذا كان ينبغي أن لا يقتل ، ثم بكى حتى بل ثيابه[٢] .

ويشير ملك الإفرنج في ذلك إلى حادثة مقتل لسان الدين بن الخطيب بأمر من سلطانه الغني بالله ملك غرناطة سنة ٧٧٦هـ .

---

(١) نفح الطيب ٢/ ٢٠١ ،وذلك في سياق الترجمة لأبي محمد عبد الحق بن إبراهيم ابن محمد بن نصر المعروف بابن سبعين المرسي الصوفي (ت٦٦٩هـ) .

(٢) الدرر الكامنة ٣/ ٢٨٦ _ ٢٨٧ ، نفح الطيب ٥/ ١١٢ .

وأما ابن خلدون فيشير إلى سفارته عن محمد الخامس بن الأحمر الغني بالله ملك غرناطة سنة ٧٦٥هـ إلى ملك قشتالة بتره بن الهنشه بن أذفونش قائلاً[١]:

«وسفرت عنه سنة خمسٍ وستين إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذ ، بتْره بن الهُنْشُه بن أذفوش ، لإتمام عقد الصلح ما بينه وبين ملوك العُدْوة ، بهديّة فاخرة من ثياب الحرير والجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيلة ، فلقيتُ الطاغية بإشبيلية ، وعاينْتُ آثار سلفي بها ، وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه ، وأظهر الاغتباط بمكاني ، وعلم أولية سلفنا بإشبيلية ، وأثنى عليّ عنده طبيبه إبراهيم بن زرزر اليهودي ، المقدم في الطبّ والنجامة ، وكان لقيني بمجلس السلطان أبي عنان ، وقد استدعاه يستطبُّه ، وهو يومئذ بدار ابن الأحمر بالأندلس . ثم نزع بعد مهلك رضوان القائم بدولتهم ، إلى الطاغية ، فأقام عنده ، ونظمه في أطبّائه . فلما قدمتُ أنا عليه ، أثنى عليّ عنده ، فطلب الطاغيةُ مني حينئذ المقام عنده ، وأن يردّ عليّ تراث سلفي بإشبيلية ، وكان بيد زعماء دولته ، فتفاديتُ من ذلك بما قبلهُ . ولم يزل على اغتباطه إلى أن انصرفتُ عنه ، فزوّدني وحمّلني ، واختصني ببغلةٍ فارهة ، بمركب ثقيل ولجام ذهبيّين ، أهديتهما إلى السلطان ، فأقطعني قرية إلبيرة من أراضي السقي بمرج غرناطة ، وكتب بها منشوراً» .

---

(١) التعريف بابن خلدون ٨٨ ـ ٨٩ .

ولهذا النص دلالات واضحة على عمق الاتصال الثقافي بين الأندلس وقشتالة وأدوات هذا الاتصال ، فهو يكشف عن دور العلماء والمثقفين الأندلسيين - بما يحظون به من تقدير لدى الأوروبيين - في إنجاح مساعي التقارب بين الأندلس وجيرانها الأوروبيين . كما يكشف النصّ عن دور بعض العناصر اليهودية والمسيحية الذين ينتقلون للعمل في قصور الأندلسيين وقصور الأوروبيين في التقريب بين الطرفين وتعريف كل منهما بثقافة الآخر .

ولم يكن دور السفراء الأوربيين إلى الأندلس بأقل من دور السفراء الأندلسيين إلى أوروبا ، إذ كانوا ينقلون أخبار ما يشاهدونه بالأندلس إلى بلدانهم ، مثلما كانوا يحملون الهدايا والتحف من ملوك الأندلس وإليهم . قد وصفت المصادر الأندلسية مراسم استقبال بعض هؤلاء الرسل وصفاً دقيقاً ، فمما أوردته على سبيل المثال أنه في سنة ٣٣٨هـ كان قدوم رسل ملك الروم الأكبر صاحب القسطنطينية على الخليفة عبد الرحمن الناصر ، راغبين منه في إيقاع المؤالفة ، واتصال المكاتبة ، فجرى لهم استقبال حافل ، وأنهم دفعوا كتاب ملكهم قسطنطين بن ليون في رق مصبوغ سمائي مكتوب بالذهب ، وكان على الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ، على الوجه الواحد منه صورة المسيح عليه السلام ، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده[(١)]

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٢١٥ ، نفح الطيب ١/ ٣٦٦ _ ٣٧١ ، أزهار الرياض ٢/ ٢٥٨ _ ٢٦١

وقد أورد صاحب نفح الطيب أسماء عدد من ملوك الفرنجة الذين وفدت رسلهم على قرطبة سنة ٣٣٦هـ حيث يقول : «ثم جاء رسول من ملك الصقالبة - وهو يومئذ هوتو - ورسول آخر من ملك الألمان ، ورسول آخر من ملك الإفرنجة وراء إلبرت ، وهو يؤمئذ أوقة ، ورسول آخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق وهو يومئذ كلدة . .»[١].

ونتيجة لكثرة الوافدين على الأندلس من التجار والسفراء الأوروبيين ، أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) عين القاضي منذر بن سعيد البلوطي سنة ٣٣٠ هـ واليا على الثغور «مع الإشراف على العمال بها والنظر في المختلفين من بلاد الإفرنج إليها»[٢].

وقد عني الباحثون الأوروبيون بدراسة أخبار هذه السفارات[٣] ، مثلما عمل بعض السفراء الأوروبيين أنفسهم على تدوين أخبار سفاراتهم إلى الأندلس ، كما فعل يوحنا أسقف جرتز الذي وصف رحلته إلى قرطبة سفيراً للإمبراطور (هوتو) إلى عبد الرحمن الناصر[٤].

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٦٥ .

(٢) التكملة لابن الأبّار ١/ ٢٩٣ ، المقتبس ٥/ ٤٨٨ .

(٣) انظر مثلاً :

Paz Y Melia, Antonio: Embajada del Emperador de Alemania Oton I al Califa de Cordoba Abderrahman I. Madrid, 1872.

(٤) تاريخ الفكر الأندلسي ٤٨٧ .

٣ ـ الرحالة والجغرافيون :

كان للرحالة والجغرافيين الأندلسيين دور مهم في تعريف الأندلسيين بأحوال الدول الأوروبية وتعريف الأوروبيين بأحوال أهل الأندلس .

ولعل من أهم كتب الجغرافيا الأندلسية التي وصفت أحوال الأوروبيين وبلدانهم كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) ، ففي القسم الخاص بجغرافية الأندلس وأوروبا[١] من هذا الكتاب يصف البكري الجلالقة والإفرنجة والصقالبة والإسبان والخزر والروم والإنجليز والألمان والروس والبلغار والترك وغيرهم ويصف عاداتهم وأحوالهم وبلادهم .

ومن كتب الجغرافيا الأندلسية التي تصف بلدان أوروبا وأحوالها كتاب الجغرافيا لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي[٢]. ولهذا الكتاب أهمية خاصة لاحتوائه على تفاصيل دقيقة ومتنوعة بشأن دول أوروبا وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها .

ومن كتب الجغرافيا الأندلسية كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار لمحمد بن عبد المنعم الحميري[٣] من علماء القرن الثامن

---

(١) حققه الدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، دار الإرشاد ، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٨ .

(٢) حققه إسماعيل العربي ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٠ .

(٣) حققه الدكتور إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٥ .

الهجري ، ومع أن الكتاب لا يختص ببلد دون غيره ، إلا أن فيه معلومات واسعة وكثيرة عن دول أوروبا وشعوبها .

أما الرحالة الأندلسيون إلى أوروبا ، فمنهم إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي من أهل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي من مدينة طرطوشة Tortosa وقد وصف في رحلته بلاد الجلالقة[١] والصقالبة[٢] وذكر لقاءه بالملك هوتو (Otto أو Oton) إمبراطور ألمانيا ونقل عنه خبر مدينة النساء[٣] .

كما ذكر لقاءه برسل ملك البلغار حين وفدوا على هوتو ووصفهم فقال مشيراً إلى ما سمّاه بملك البلغارين «لم أدخلُ بلده ولكني رأيْت رُسله بمدينة ماذن بَرْغ حين وفدوا على هوتُه الملك يلبسون ملابس ضيّقة ، ويتمنطقون بأحزمةٍ طوال قد ركّب عليها ترامسُ الذهب والفضة ، وملكهم عظيم القدر يضع على رأسه التاج ، وله الكتّاب والأزمَّةُ وأصحاب الخُطط وأمْرٌ ونهيٌ على نظم وترتيب كالمعهود للملوّك الأكابر . ولهم معرفة بالألسن ، ويترجمون الإنجيل باللسان الصقلبي ، وهم نصارى . . .»[٤] .

---

(١) جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري ص ٨٠ ـ ٨١ .

(٢) نفسه ١٥٤ ـ ١٧٠ .

(٣) نفسه ١٧٠ .

(٤) نفسه ١٧٥ ـ ١٧٧ .

وعلى الرغم من أنّ رحلة الطرطوشي لم تصل إلينا ، إلا أنّ البكري اعتمد في كتابه المسالك والممالك على جزء كبير منها .

ومن الرحالة الأندلسيين الذين دخلوا البلدان الأوروبية ووصفوا أحوالها بنيامين بن يونه التطيلي الأندلسي الذي قام برحلته ما بين ١١٦٥ ـ ١١٧٣ م[١] ، حيث زار برشلونة وفرنسا وإيطاليا واليونان والقسطنطينية ورودس وقبرص وغيرها حتى وصل إلى فلسطين ولبنان والعراق ومصر . ولئن كان التطيلي يبحث في رحلته عن أحوال اليهود وأعدادهم إلا أنه وصف أيضاً أحوال البلدان والأمم التي مر بها في رحلته .

ومنهم أيضاً أبو حامد الغرناطي محمد بن عبدالرحيم المازني القيسي (٤٧٣ ـ ٥٦٥هـ) الذي سجل في رحلته المسماة «تحفة الألباب ونخبة الإعجاب»[٢] مشاهداته في أوروبا وآسيا ، حيث زار في أوروبا بلاد الصقالبة والبلغار وبحر الخزر وغيرها . وقد قضى في رحلته الأوروبية الآسيوية نحو ثلاثين عاماً (٥٢٤ ـ ٥٥٤هـ) ، وفي أثناء هذه الرحلة أقام في باشغرد التي يرجح الباحثون أنها في بلاد المجر حيث امتلك فيها منزلاً ، وفيها تزوج ولده الأكبر حامد بسيدتين من أهالي

---

(١) ترجمها عن العبرانية وقدم لها عزرا حداد ، المطبعة الشرقية ، بغداد ، ١٩٤٥ .

(٢) حررها وقدم لها قاسم وهب ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، أبو ظبي ، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣ .

تلك البلاد[١]. ووصف كثيراً من مجالسه ومحاوراته ومشاهداته في تلك البلاد.

ومن الرحالة الأندلسيين الذين وصفوا مشاهداتهم في بلدان أوروبية أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الغرناطي، حيث خرج في رحلته الأولى إلى المشرق سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م حتى ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، ودونها في كتابه المسمى «تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار»[٢].

ووصف في بداية رحلته بعض جزر البحر الأبيض المتوسط: سردانية وصقلية وإقريطش[٣]، كما وصف في طريق عودته جزيرة صقلية وصفاً تفصيلياً هي ومدنها وملوكها وسكانها ومراكبها وكنائسها وبساتينها وعادات أهلها وأعيادهم وبراكينها وعلاقة ملكها بالمسلمين[٤]. وقد أقام ابن جبير في صقلية في طريق عودته من ٧/١ حتى ١٣/ ٣/ ١١٨٥م أي أكثر من شهرين.

ومما أورده ابن جبير في وصف ملك صقلية «غليام» قوله: «وشأن ملكهم هذا عجيبٌ في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان

---

(١) تحفة الألباب ١٢ (مقدمة المحقق)، ١٤٢.

(٢) حورها وقدم لها علي أحمد كنعان، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠١.

(٣) رحلة ابن جبير، ٢٠ ـ ٢١.

(٤) نفسه ٢٥٠ ـ ٢٧١.

المجابيب ، وكلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه متمسك بشريعة الإسلام . وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله ، حتى إن الناظر في مطبخته رجل من المسلمين ، وله جملة من العبيد السود المسلمين ، وعليهم قائد منهم . . . وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك ، وترتيب قوانينه ، ووضع أساليبه ، وتقسيم مراتب رجاله ، وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته ، بملوك المسلمين . . ومن عجيب شأنه المتحدَّث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وعلامته ـ على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به ـ : الحمد لله حق حمده . وكانت علامة أبيه : الحمد لله شكرا لأنعمه . وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن ، ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور ، وهو يحيى بن فتيان الطراز ، وهو يطرز بالذهب في طراز الملك : أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة ، تعيدها الجواري المذكورات مسلمة ، وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله ، ولهن في فعل الخير أمور عجيبة . وأعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك ، فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذاكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانه ، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته ، فكان يقول لهم : «ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به» تسكيناً لهم[١] .

---

(١) نفسه ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

ومن العلماء الأندلسيين الذين دخلوا البلاد الأوروبية وأقاموا فيها الشيخ محيي الدين بن عربي الصوفي (٥٦٠ ـ ٦٣٨هـ) ، فقد ذكرت المصادر أنه طاف البلاد ودخل بلاد الروم وسكنها مدة[١] . واتفق أنه لما أقام ببلاد الروم زكاه ذات يوم الملك فقال : هذا تذل له الأسود . أو كلاما هذا معناه . فسئل عن ذلك فقال : خدمت بمكة بعض الصلحاء ، فقال لي يوماً : الله يُذِلُّ لك أعزَّ خلقه . وأمر له ملك الروم مرة بدار تساوي مائة ألف درهم ، فلما نزلها وأقام بها مرَّ به في بعض الأيام سائلٌ ، فقال له : شيء لله . فقال : ما لي غير هذه الدار ، خذها لك . فتسلمها السائل وصارت له[٢] .

٤ ـ ازدواجية الثقافة :

يمثل أصحاب الثقافة المزدوجة : الأندلسية والأوروبية ، صلة وصل مهمة ومؤثرة بين الثقافتين الأندلسية والأوروبية ، وقناة من أهم قنوات الاتصال الثقافي بين الأندلس وجيرانها الأوروبيين . ويمكن تعريف أصحاب هذه الثقافة المزدوجة في الجانب الأندلسي بهؤلاء المسيحيين الذين ظلوا على دينهم تحت الحكم الإسلامي وعرفوا بالمستعربين أو المعاهِدة ، وكذلك المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام وظلوا في الأندلس وعرفوا بالمسالمة ، وكذلك الرقيق الأوروبي من الصقالبة والأسرى والجواري الأوروبيات . وأما أصحاب الثقافة

---

(١) نفح الطيب ٢/ ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) نفسه ٢/ ١٦٤ .

المزدوجة في الجانب الأوروبي فيتمثلون في المدجنين ، وهم الأندلسيون الذين عاشوا في ظل الحكم الإسباني بعد سقوط مدنهم ، وكذلك الأسرى المسلمين والسبايا الأندلسيات في قصور الملوك والنبلاء الأوروبيين . وإلى مثل هذا يشير نورمان دانييل (Norman Daniel) في كتابه : The Arabs and Mediaeval Europe في قوله :

«لا أحد يجادل في أن إسبانيا كانت هي أكثر مكان اقترنت فيه الثقافات العربية والأوروبية وتطورتا معا ؛ فقد كان ثمة في الواقع أربعة خطوط متوازية : أوروبيون تحت حكم أوروبي ، وعرب تحت حكم عربي ، وكذلك أوروبيون تحت حكم عربي (المستعربون) وعرب تحت حكم أوروبي (المدجنون) ، ولذلك كانت إسبانيا المصدر الرئيسي لمعرفة الفلسفة العربية والعلوم الإسلامية»(١) .

وكان المستعربون والمدجنون وكذلك اليهود ـ ذوو الثقافة العبرانية والأندلسية والأوروبية ـ ينتقلون عبر الحدود بحريّة وسهولة وكانوا محلَّ ترحيب من الأندلسيين والأوروبيين (الإسبان خاصة) على حدّ سواء ، وكانت تتاح لهم فرص العمل والإقامة في أي جانب يختارونه ، ولذلك كانت تسند إليهم وظائف السفارة والترجمة والطب ، لأن هذه الوظائف هي في الأصل وظائف عابرة للحدود ومن أهم شروطها ومتطلباتها أن يكون المرشح لها مزدوج الثقافة واللغة أو متعددها . والشواهد على ذلك لا حصر لها ،

The Arabs and Mediaeval Europe, p.80. (١)

ومنها أبو عبد الله محمد ابن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج (ت٧١٤هـ) ، فقد كان أبوه نجاراً من مدجني إشبيلية ، ثم لحق أبو عبد الله بغرناطة وولي الوزارة لأبي الجيوش نصر[١] . ومنها والدة مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية فقد كانت نصرانية اسمها جود ، ووقعت مع من وقع من بناته ونسائه ، أسيرة في سردانية ، ونجح مجاهد في افتكاك الأسرى إلا أن والدته اختارت أهل ملتها وتبعتها أختها على ذلك[٢] . وأما ابنه علي فقد افتك أسره بعد مدة ، «وكان يتكلم بلسان الروم الذين ربي فيهم ويتزيا بزيّهم ، فعرض عليه والده الإسلام ، فقبله ، وَحَسُنَ إسلامه ، ثم قلّده الأمر من بعده ، وكان عليٌّ هذا قد وقع في سهم صاحب الألمانيّين ، فاحتبس به للمباهاة ، وأعيا على والده فداؤه ، وقد بذل فيه عشرة آلاف إلى أن خلص بعد زمن طويل[٣] .

وكان المستعربون واليهود يستخدمون للسفارة بين ملوك الأندلس وملوك أوروبا ، ومن أشهر هؤلاء السفراء المستعربين ربيع بن زيد الأسقف القرطبي ، الذي سفر لعبد الرحمن الناصر إلى هوتو ملك ألمانيا وقضى عنده سنتين[٤] ، كما ذهب مراراً إلى القسطنطينية واليونان

---

(١) الإحاطة ٢/ ١٤٠ .

(٢) أعمال الأعلام ٢٢١ .

(٣) نفسه ٢١٩ .

(٤) نفح الطيب ١/ ٣٦٥ .

سفيراً ورجع بكثير من التحف والهدايا من التماثيل والأحواض والفسيفساء مما استخدم في قصر الزهراء ومسجد قرطبة[١]. وكان ربيع يجيد العربية واللاتينية ، وهو الذي ألّف للحكم المستنصر التقويم المسمى كتاب تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان باللغتين اللاتينية والعربية[٢].

ومن السفراء اليهود حسداي بن إسحاق الكاتب الذي عقد في سنة ٣٢٨هـ الصلح بين عبد الرحمن الناصر وصاحب برشلونة[٣]. وعندما وقع القائد محمد بن هاشم التجيبي قائد جيش عبد الرحمن الناصر أسيراً في يد الجلالقة بعد معركة الخندق سنة ٣٢٧هـ حاول الناصر أن يستخلصه من يد رذمير بن أردون ، فأرسل حسداي هذا إلى جليقية «ولما أن سار حسداي إلى الطاغية رذمير واختبره ، خفّ على قلبه واستماله ، ولطف به ، حتى أحبه ، وسمع منه ، وافتتن به ، ووالى مجالسته ، فطال مكثه لديه سبعة أشهر وأياما ، ورذمير آنس به ومستمتع بحديثه ، مستنيم إليه ، مُصْغٍ إلى قوله . . .»[٤].

---

(١) أزهار الرياض ٢/ ٢٧٠ ، ونفح الطيب ١/ ٥٦٩ .

(٢) Hajji, Andalusian Diplomatic Relations, pp. 218-219

(٣) المقتبس ٥/ ٤٥٤ .

(٤) نفسه ٥/ ٤٦٦

وقد وصف ابن حيّان حسداي هذا بقوله : «وهو واحد العصر ، الذي لا يُعْدَلُ به خادم ملك ، في الأدب وسعة الحيلة ، ولطف المدخل ، وحسن الولوج»[١] .

وأما الصقالبة والأسرى الأعاجم في قصور الأندلسيين فلا يحصون عدداً ، وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته «أن العلوج من الجلالقة والفرنجة في الأندلس فإن العادة جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يأنفون من الرق لما يأملونه من الجاه والرتبة»[٢] . وقد كان عدد الصقالبة ـ على سبيل المثال ـ بمدينة الزهراء وحدها سنة ٣٥٠هـ عند وفاة عبد الرحمن الناصر ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين صقلبيا[٣] .

وفي مقابل ذلك كانت قصور الأمراء الأوروبيين تعجّ بالمسلمين من الأسرى والجواري والتجار والشعراء والرحّالة ، فقد كان في بلاط الملك شانجه الخامس Sancho V في قشتالة سنة ١٢٩٣م ستة وعشرون شاعراً مسلماً بينهم امرأتان[٤] .

وفي مقابل ذلك كان أسرى الأندلسيين وسباياهم منتشرين في قصور الدول الأوروبية وبيوت نبلائها ، وتذكر المصادر الأندلسية أنه

---

(١) نفسه .

(٢) المقدمة ١/ ٤٥٣ .

(٣) أعمال الأعلام ٤٠ .

(٤) ملحمة السّيد ص٣٩ (مقدمة المترجم) ، درسها وقدّم لها وترجمها الدكتور طاهر أحمد مكي ، ط١ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٠ .

بعد أن استولى النورمان على مدينة بربشتر سنة ٤٥٦هـ «سبوا فيها من ذراري المسلمين ونسائهم ما لا يحصى كثرة ، واختاروا من أبكار جواري المسلمين وأهل الحسن منهن خمسة آلاف جارية وأهدوهن إلى صاحب القسطنطينية»(١) . وقد كانت هؤلاء النسوة اللاتي جرت العادة على إهدائهن إلى قصور الملوك والقادة الأوروبيين ، من وسائل نقل الثقافة العربية إلى أوروبا ، وكان بعضهن يعزف الموسيقى العربية ويغني بالعربية في قصور هؤلاء الملوك(٢) . كما كانت الجواري الروميات والإسبانيات من وسائل نقل الثقافة الأوروبية إلى المجتمع الأندلسي ، ويقول أبو القاسم العزفي في رسالته «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» : إن احتفال الأندلسيين بأعياد النصارى كالنيروز والعنصرة ناتج عن «مجاورة أهل الأندلس للنصارى ومخالطتهم لتجارهم وأسراهم»(٣) ، ويقول في موضع آخر من رسالته إنّ سبب ذلك هو مطاوعة الرجال للنساء(٤) . ولا شك في أنه يشير بذلك إلى الجواري الإسبانيات والروميات في الأندلس .

وفي هذا الإطار نسوقُ جانباً من ردّ أبي المطرّف عبد الرحمن بن أحمد بن صبغون بن مثنّى البلنسي (ت٤٥٨هـ) على رسالة بعثها إليه

---

(١) جغرافية البكري ٩٢ ، نفح الطيب ٤/ ٤٥٠ ـ ٤٥٣ .

(٢) انظر المصدرين السابقين .

(٣) الدر المنظم ٢١ .

(٤) نفسه ٢٨ .

أبـو الفضـل محمد بن عبد الواحد البغدادي ، فقد تحدّث ابن مثنّى عن أحـوال أهل الأندلس قائلاً : « . . . وهل نحنُ ـ أهْلَ هذه الجزيرة النائية عـن خـيار الأمم ، المجاورة لجماهير العجم ـ إلاّ أجْدرُ البريّةِ باللّكن ، وأولاها بعدمِ الفِطن ، وأخلَقَها بالخَرَس ، وأحقّها بغلطِ الحسّ؟! فلم يَقْـرَعْ سَـمْعَ ابنٍ من أبناء خاصّتنا عند ميلاده ، ولا خامَرَ طَبْعَ الرضيعِ منهُمْ في مَهْدِهِ ، إلاّ كلامُ أمةٍ وكعاء ، أعجميةٍ خرقاء ، ولا ارتضَعَ إلاّ ثَدْيَهـا ، ولا اكْتَسَبَ إلاّ عَيَّها ، ولا سكنَ إلاّ في حِجْرها ، ولا مَرَن إلاّ بـتدبيرها ، حـتى إذا صـارَ في عديـد الـرجال ، وانـتهى إلى حـدود الكمـال ، باشر طوائف النصرانيّةِ فخاطبهم بألسنتهم ، وجدَّ في حِفْظِ لغتهم ، وعانى طِباقهم ، وكابد أخلاقهم . . .»[١] .

ويحمـل هـذا الـنّص دلالات بالغة الأهمية على وسيلة أساسية من وسـائل انـتقال الـثقافة بين الأندلس وأوروبا ، وهي التربية والرضاعة الـتي تقـوم بهـا الجـواري لأبناء العامّة والخاصّة ، فينشأ هؤلاء الأطفال وقد تشرّبوا مع الرضاع والتربية لغة الجواري وثقافتهنّ وطباعهنّ .

وقد كانت المصاهرة والزيارات المتبادلة بين أمراء الأندلس والأمراء الأوروبـيين عاملاً مهماً من عوامل نقل التأثيرات الثقافية . وذكر روبير بـريفو في كـتابه «التروبـادور والعاطفـة الرومانسـية» أن أمـراء العـرب وأمـراء بـروفانس اعـتادوا أن يـتزاوروا ويصـحب كـلٌّ مـنهم شعراءه ومنشـديه عـند القـيام بـزياراته ، وكثيراً ما ربطت أواصر الصداقة بين

---

(١) الذخيرة ق٣م١ ص ٤١٤ ـ ٤١٥ .

بعضهم وبعض ، بل كثيراً ما تحالف أمير عربي وأمير أوروبي على محاربة أعداء لهما من العرب أو من الفرنجة على السواء[١] .

أوجه الاتصال الثقافي

وقد شهدت العلاقات الثقافية بين الجانبين بعض أوجه النشاط ، تمثلت في انتقال الكتب على جانبي الحدود إما عن طريق الإهداء أو عن طريق الشراء والاقتناء ، وكذلك الترجمة وقيام حركة علمية على أراضي الجانبين يشارك فيها علماء من الطرفين ، وكذلك تعلم كل طرف لغة الطرف الآخر ، بالإضافة إلى انتشار الحوارات والمناظرات الدينية بين علماء الجانبين ، وغير ذلك .

١ ـ أما انتقال الكتب على جانبي الحدود وتبادلها ، فهو دليل على حرص كل طرف على زيادة معرفته بالطرف الآخر والإفادة مما لديه من علوم ومعارف . ومن أشهر ما يروى عن ذلك قصة كتاب الحشائش لديسقوريدس وكتاب القصص لهروسيس (لباولوس أوروسيوس) ؛ فقد كان من جملة ما أهداه أرمانيوس ملك القسطنطينية لعبد الرحمن الناصر في سنة ٣٣٧هـ كتاب ديسقوريدس مصوّر الحشائش بالتصوير الرومي العجيب ، وكان الكتاب مكتوباً بالإغريقية ، وبعث معه كذلك «كتاب هروسيس صاحب القصص ،

وهو تاريخ للروم عجيب ، فيه أخبار الدهور وقصص الملوك الأول وفوائد عظيمة . وكتب أرمانيوس في كتابه إلى الناصر أن كتاب ديسقوريدس لا تجتنى فائدته إلا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني ، ويعرف أشخاص تلك الأدوية ، فإن كان في بلدك من يحسن ذلك فزت أيها الملك بفائدة الكتاب ، وأما كتاب هروسيس فعندك في بلدك من اللطينيين من يقرأه باللسان اللطيني ، وإن كشفتهم عنه نقلوه لك من اللطيني إلى اللسان العربي»[1] .

وورد في كتاب عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة أنه «لم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الأندلس من يقرأ اللسان الإغريقي الذي هو اليوناني القديم ، فبقي كتاب ديسقوريدس في خزانة عبد الرحمن الناصر باللسان الإغريقي ولم يترجم إلى اللسان العربي . . فلما جاوب الناصر أرمانيوس الملك سأله أن يبعث له برجل يتكلم بالإغريقي واللطيني ليعلّم له عبيداً يكونون مترجمين ، فبعث أرمانيوس الملك إلى الناصر براهب كان يسمى نقولا ، فوصل إلى قرطبة سنة أربعين وثلاثمائة ، وكان يومئذ بقرطبة من الأطباء قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ما جهل من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس إلى العربية ، وكان أبحثهم وأحرصهم على ذلك من جهة التقرب إلى الملك عبد الرحمن الناصر ، حسداي بن بشروط الإسرائيلي ، وكان

---

(١) عيون الأنباء ٤٩٣ ـ ٤٩٤ .

نقولا الراهب عنده أحظى الناس وأخصهم به ، وفسر من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس ما كان مجهولاً . .»[١] .

ومن الأدلة على نشاط حركة الكتب بين الأندلس وأوروبا ما ورد في كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المرّاكشي[٢] ، في الترجمة لأبي عبد الله محمد بن سعيد بن محمد بن مدرك الغساني المالقي عن سبب كثرة ما كان لديه من الكتب والأعلاق النفيسة «أن مجاعة حدثت في بعض بلاد الروم ، فأوسق مركباً كبيراً بالزرع ، وأوعز إلى متحمله ألا يبيع لهم شيئاً إلا بالكتب ، وكان حَسَنَ المعرفة بانتقائها ، فجلب له منها الكثير النفيس الذي عجز عن الاتصال به كثير من أبناء عصره» .

وورد في الذيل والتكملة أيضاً في الترجمة لأبي عثمان سعيد بن حكم القرشي زعيم منورقة (٦٠١ ـ ٦٨٠هـ) أنه كان «شديد العناية بجمع دفاتر العلم وأعلاق الكتب حتى جمع منها ما لا نظير له كثرة وجودة ، إذ كان مقصوداً بها من المسلمين والنصارى ، فكان يتخدم بها إليه النصارى كما يتقرب بها إليه المسلمون»[٣] .

---

(١) نفسه ٤٩٤ .

(٢) الذيل والتكملة ٦/ ٢١٣ .

(٣) الذيل والتكملة ٤/ ٣١ .

ولما ورد سانشو ملك قشتالة إلى السلطان عبد الحق المريني لعقد الصلح معه في عين الصخرة على مقربة من وادي لكة سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م طلب منه عبد الحق «أن يبعث له بما يجده في بلاده بأيدي النصارى واليهود من كتب المسلمين ومصاحفهم ، فبعث إليه منها ثلاثة عشر حملا فيها جملة من الكتب ككتاب الله العزيز وتفسيره كابن عطية والثعالبي ، ومنها كتب الحديث وشروحها كالتهذيب والاستذكار ، وكتب الأصول والفروع واللغة العربية والأدب وغيرها ، فأمر رحمه الله بها فحملت إلى فاس ، فحبسها على طلبة العلم بالمدرسة التي كان بناها»(١) . وتدل هذه الرواية على أنه كان للنصارى واليهود في بلاد قشتالة حرص على اقتناء كتب المسلمين ، مثلما كان المسلمون يحرصون على اقتناء كتب الروم .

ومما يدل أيضاً على عناية الأوروبيين بكتب المسلمين أن كتب محيي الدين بن عربي كان «لها ببلاد اليمن والروم صيت عظيم»(٢) .

وكان المؤلفون الأندلسيون يعتمدون في مؤلفاتهم في أحيان كثيرة على كتب الأوروبيين ، فمن ذلك أن لسان الدين بن الخطيب عندما أراد أن يعرّف بملوك النصارى ـ على حد تعبيره ـ قال «وقد كنت طلبت شيئاً من ذلك من مظنته ، وهو الحكيم الشهير ، طبيب دار

---

(١) الأنيس المطرب ٣٦٣ .

(٢) نفح الطيب ٢/ ١٦٦ .

قشتالة وأستاذ علمائها ، يوسف بن وقار الإسرائيلي الطليطلي لما وصل إلينا في غرض الرياسة عن سلطانه ، فقيد لي في ذلك تقييداً أنقل منه بلفظه أو بمعناه ما أمكن . . .»[١] .

وكذلك اعتمد أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي ابن جلجل في كتابه «طبقات الأطباء والحكماء» على كتب للأوروبيين مثل كتاب هروشيوش وكتاب إيسدور الإشبيلي وغيرهما[٢] .

وفي الجانب الآخر كان الباحثون الأوروبيون يعتمدون على المصادر الأندلسية في مؤلفاتهم ، فقد اعتمد ألفونسو العاشر الحكيم في كتابه «التاريخ العام General Estoria» على مصادر عربية مثل كتاب آداب الفلاسفة لحنين بن إسحاق وكتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري وسماه (Abul Ubeyt) وكتاب إبراهيم بن ناصف شاه المصري عن تاريخ مصر[٣] .

٢ ـ الترجمة : وقد كانت الترجمة شرطاً أساسياً من شروط الانتفاع بهذه الكتب التي كان يتبادلها أو يتهاداها العرب والأوروبيون ، وإن كانت معرفة كل طرف بلغة الطرف الآخر تغني في بعض الأحيان عن الترجمة ، إلا أن معرفة لغات الآخرين لم تكن متاحة للناس جميعاً .

---

(١) أعمال الأعلام ٣٢٢ .

(٢) طبقات الأطباء والحكماء (مقدمة المحقق) .

(3) Alfonso x. General Estoria, Edicion de Milagros Villar Rubio, Plaza & Janes Editores. Barcelona, 1984, p. 38.

وقد بدأت حركة الترجمة في وقت مبكر على أيدي المستعربين وخلال السفارات التي كانت تقوم بين الأندلس ودول أوروبا ، وكان حكام الأندلس يستعينون برجال الدين المسيحي للترجمة بينهم وبين الوفود الأوروبية ومرافقة تلك الوفود ، فعندما وصل أردون بن أذفونش سنة ٣٥١هـ إلى قرطبة وافداً على الخليفة الحكم المستنصر «حفته جماعة من نصارى وجوه أهل الذمة يؤنسونه ويبصرونه منهم وليد بن خيزران قاضي النصارى بقرطبة وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما»[١] . وكان المترجم عن أردون وليد بن خيزران[٢] .

وكذلك كانت بداية ترجمة الكتب العلمية واللاتينية واليونانية إلى العربية ، حيث اعتمد الخلفاء الأندلسيون على رجال الدين المسيحي واليهودي .

وقد حظيت كتب الطب والفلسفة الأندلسية وغيرها باهتمام خاص في الترجمة إلى اللغات الأوروبية إبان الوجود العربي في الأندلس ، وكان كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم الزهراوي المعروف عند اللاتين باسم أبو الكاسيس Abulcasis (ت ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م) وهو كتاب في الجراحة ، موضع اهتمام مبكر من

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٩٠ .

(٢) نفسه ١/ ٣٩١ .

الأوروبيين حيث ترجمه إلى اللاتينية جيرارد الكريموني ، وكثر اعتماد الناس عليه في العصور الوسطى (١) .

ومن أهم مظاهر الترجمة المبكرة والمتطورة في آن معاً أن يونس بن إسحاق بن بكلارش ـ من يهود الأندلس ـ كتب كتاباً في الطب سماه «المستعيني» ألفه للمستعين بن هود صاحب سرقسطة ، وأورد فيه أسماء الأدوية بالسريانية والفارسية واليونانية والعربية واللاتينية والعجمية العربية التي كان يستعملها أهل الأندلس (٢) .

غير أن ذروة نشاط حركة الترجمة كانت في القرن السابع الهجري/ الثاني عشر الميلادي حيث نشط اليهود في نشر عدد كبير من مؤلفات العرب بين إخوانهم في الدين من أهل إسبانيا وجنوبي فرنسا ، فترجمت إلى العبرية كتب عربية كثيرة (٣) .

وكان لمدرسة طليطلة في الترجمة في القرن السابع الهجري دور رئيسي في نشر الثقافة العربية في أوروبا ، ويرجع الفضل في ذلك إلى رايموندو أسقف طليطلة وكبير مستشاري ملك قشتالة ألفونسو السابع ، فقد أنشأ رايموند مدرسة المترجمين الطليطليّين وحفز أفرادها على ترجمة المؤلفات العربية في الرياضيات والفلك والطب والكيمياء

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ٤٦٦ .

(٢) نفسه ٤٦٩ .

(٣) نفسه ٥٠٠ ـ ٥٠٢ .

والطبيعة ، كما ترجمت بالإضافة إلى ذلك عن العربية مؤلفات إقليدس وبطليموس وجالينوس وأبقراط وغيرهم . وكان من المترجمين الإسبان لهذه الكتب دومينكوس جنديسالفي ويوحنا بن داود الإسباني وجيرارد الكريموني وغيرهم . وقام ميكل سكوت الإنكليزي Michael Scott بترجمة كتب ابن رشد إلى اللاتينية ، وقام روبرت دي رتينس Robert de Retines وهرمان الدلماشي بترجمة القرآن الكريم . وترجمت كتب كثيرة في الفلسفة والتصوف والرياضيات والطب[١] .

وفي زمن ألفونسو العاشر المعروف بالحكيم أو العالم ملك قشتالة (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤م) تشهد الترجمة من العربية نشاطاً واسعاً حيث ترجمت كليلة ودمنة سنة ١٢٥١ ، والسندباد سنة ١٢٥٣[٢] . وقد التف حول ألفونسو نفر من العلماء المسلمين والنصارى واليهود ، وأنشأ لهم معهداً في مرسية بمعاونة محمد بن أحمد الرقوطي المرسي ، وأشرف ألفونسو شخصياً على ترجمة الكتب العربية في ذلك المعهد ، ثم نقل المعهد إلى إشبيلية وجعله مدرسة عامة للاتينية والعربية ، وجعل فيها أساتذة من المسلمين لتدريس الطب والعلوم ، وظلت طليطلة كذلك مركزاً للترجمة . وبالإضافة إلى كليلة ودمنة وقصص السندباد ترجمت قصص وأساطير عربية كثيرة ، واستخدم ألفونسو

---

(١) نفسه ٥٣٦ ـ ٥٤٠ .

(٢) General Estoria. P22 .

الموسيقى الأندلسية في وضع أناشيده الطائرة الصيت (Las Cantigas)[١].

وكان أبو الحسن علي بن أبي الرجال اليهودي أحد مترجمي ألفونسو ، وقد ترجم علم النجوم إلى القشتالية ، ومن القشتالية إلى اللاتينية[٢].

وقد اقترن هذا النشاط في حركة الترجمة بتأليف معاجم لغوية عربية أوروبية ، وتحتفظ المكتبة الوطنية في مدريد بورقة من معجم عربي ألماني مؤرخة في شوال ٩٠٦هـ/ أيار ١٥٠١م ، وقام جيورجس كولان بدراستها ونشرها في مجلة الأندلس[٣].

٣ ـ أنشطة تعليمية مشتركة أو متبادلة : وتتمثل هذه الأنشطة بطلب الأندلسيين العلم والمعرفة في دول أوروبا ، وطلب الأوروبيين العلم والمعرفة في مدن الأندلس . وتقوم على هذه الأنشطة شواهد كثيرة . ومن الأندلسيين الذين أخذوا العلم في بلاد الروم محمد بن علي بن فرج القربلياني (ت٧٦١هـ) فقد «قرأ على أبيه ببلاده

---

(١) The Arabs and Mediaeval Europe, 285 ، تاريخ الفكر الأندلسي ٥٧٣ ـ ٥٧٤ الإحاطة ٣/ ٦٧ ـ ٦٨ ، نفح الطيب ٤/ ١٣٠ .

(٢) The Arabs and Mediaeval Europe, p. 292.

(٣) Un petit Glossaire hispanique Arabo-Allemand du Debut du xvi^e siecle, Georges S.Colin, Al- Andalus, Vol. 11, 1946, pp. 275-281.

من قربليان بلد الدجن ، وأخذ الجراحة عن فوج من محسني صناعة عمل اليد من الروم»[١].

ومنهم كذلك أبو محمد ضياء الدين عبد الله بن أحمد بن البيطار المالقي (ت٦٤٦هـ) ، فقد كان من علماء النبات و«سافر إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم والمغرب ، واجتمع بجماعة كثيرة من الذين يعانون هذا الفن . .»[٢].

ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله البنتي الأندلسي الأنصاري فقد «ساح في الأرض ودخل بلاد العجم وغيرها من البلاد البعيدة وكان يتكلم بألسنة شتى»[٣]. ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن لب الكناني من أهل مالقة ، ذكر ابن الزبير أنه «كان له أرب في التطواف ، وخصوصاً بأرض النصارى ، يتكلم مع الأساقفة في الدين ، فيظهر عليهم»[٤]. وكان يحيى بن إسحاق طبيب عبد الرحمن الناصر قد ألف كتاباً في الطب يشتمل على خمسة أسفار ذهب فيها مذهب الروم[٥].

(١) الإحاطة ٣/ ١٨٠ .

(٢) نفح الطيب ٢/ ٦٩٢ .

(٣) نفح الطيب ٢/ ٢٤٣ .

(٤) الإحاطة ٣/ ٨٠ .

(٥) عيون الأنباء ٤٨٨ .

وكان أساتذة من بلاد الروم يأتون أحياناً إلى الأندلس للقيام بتعليم بعض الأندلسيين فنوناً بعينها ، مثلما فعل نقولا الراهب الذي جاء من القسطنطينية ليعلّم بعض أطباء قرطبة اللغة اليونانية لكي يتمكنوا من ترجمة كتاب ديسقوريدس ، مثلما أشرنا إليه سابقاً. وكذلك الصانع الذي أرسله ملك القسطنطينية إلى قرطبة لتعليم مماليك الحكم المستنصر فن الزخرفة بالفسيفساء ؛ فقد ذكرت المصادر الأندلسية أنه في سنة ٣٥٤هـ بنى المستنصر قبة على محراب مسجد قرطبة ، وزينها بالفسيفساء ، «وكان ملك القسطنطينية قد بعث بها مع صناعها إلى الحكم ، وكان الحكم قد كتب له في ذلك وأمره بتوجيه صانعها إليه ، فرجع وفد الحكم بالصانع ومعه الفسيفساء ثلاثمائة وعشرون قنطاراً بعث بها ملك الروم هدية ، فأمر الحكم بإنزال الصانع والتوسيع عليه ، ورتب معه جملة من مماليكه لتعلم الصناعة ، فوضعوا أيديهم معه في الفسيفساء المجلوبة ، وصاروا يعملون معه ، فأبدعوا وأربوا عليه ، واستمروا بعد ذلك منفردين دون الصانع القادم ، إذ صدر راجعاً عند الاستغناء عنه ، بعد أن أجزل له المستنصر الصلة والكسوة ، وتداعى على هذه البنية كل صانع حاذق من أقطار الأرض»[١].

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨ ، أعمال الأعلام ٤٢ .

وأما توجه الأوروبيين لطلب العلم في الأندلس وعلى أيدي العلماء المسلمين ، فعليه شواهد كثيرة أيضاً ، ففي ترجمته لأبي محمد عبد الله بن سهل الغرناطي (ت بعد ٥٥٣هـ) يقول لسان الدين بن الخطيب «ثم شهر بعد ذلك بعلم المنطق والعلوم الرياضية وسائر العلوم القديمة ، وعظم بسببها ، وامتد صيته من أجلها ، وأجمع المسلمون واليهود والنصارى أن ليس في زمانه مثله ؛ ولا في كثير ممن تقدمه ، وبين هذه الملل الثلاث من التحاسد ما عُرِفَ . وكانت النصارى تقصده من طليطلة تتعلم منه أيام كان ببياسة ، وله مع قسيسيهم مجالس في التناظر حاز فيها قصب السبق»(١) .

وفي الترجمة لأبي بكر محمد بن أحمد الرقوطي المرسي أنه «كان طرفا في المعرفة بالفنون القديمة : المنطق والهندسة والعدد والموسيقا والطب ، فيلسوفاً ، طبيباً ماهراً ، آية الله في المعرفة بالألسن ، يقرىء الأمم بألسنتهم فنونهم التي يرغبون في تعلمها ... عرف طاغية الروم(٢) حقه ، لما تغلب على مرسية ، فبنى له مدرسة يقرىء فيها المسلمين والنصارى واليهود ، ولم يزل معظَّماً عنده»(٣) .

ومن الذين درسوا في بلاد الأندلس جربرت أوزيلاك Gerbert of Aurillac الذي عرف فيما بعد باسم البابا سلفستر الثاني ، فقد

---

(١) الإحاطة ٣/ ٤٠٤ ، الإحاطة/ نصوص جديدة لم تنشر ٧٤ .

(٢) إشارة إلى ألفونسو السابع ملك قشتالة (١١٢٦ ـ ١١٥٧م) .

(٣) الإحاطة ٣/ ٦٧ ـ ٦٨ ، نفح الطيب ٤/ ١٣٠ (وفيه : القرموطي) .

اكتسب معرفته في الرياضيات والموسيقى والفلك من عرب إشبيلية[١].

وفي حديثه عن السيّد الكمبيطور El Cid el Campeador وهو لقب لرودريغو دياث دي بيبار Rodrigo Diaz de vivar الذي احتلّ بلنسية سنة ٤٨٨هـ وأحرق قاضيها ابن الجحّاف ، يقول صاحب الذخيرة عنه «وكان ـ زعموا ـ تُدْرَسُ بين يديه الكتُبُ ، وتقرأ عليه سيرُ العرب ، فإذا انتهى إلى أخبار المهلّب استخفّه الطرب ، وطفق يُعَجِّبُ منها ويتعجّب»[٢].

وذكرت بعض الدراسات الحديثة أنّ من دوافع السفارة التي بعث بها الإمبراطور الألماني هوتو (Otto) سنة ٣٤٢هـ/ ٩٥٣م معرفة مدى التقدّم الثقافي والعلمي الذي كانت تشهده الأندلس ومحاولة الاستفادة منه ، وذكرت كذلك أن John of Gorze سفير الإمبراطور الألماني قد تعلم العربية خلال إقامته في قرطبة وأنه حمل معه عند عودته إلى ألمانيا بعض المخطوطات العربية[٣].

كما أوردت بعض الدراسات العربية والغربية نصّ رسالتين جرى تبادلهما بين جورج الثاني ملك إنجلترا والغال والسويد والنرويج ،

---

(١) The Arabs and Mediaeval Europe, p. 287.

(٢) الذخيرة ق٣ ، م١ ، ص١٠٠ .

(٣) PH. Hitti, History of the Arabs, London. 1960, P. 590, El-Hajji, Andalusian Diplomatic Relations, p. 216

والخليفة هشام ملك الأندلس ، تشتمل الأولى على رغبة الملك جورج الثاني في إرسال بعثة علمية برئاسة ابنة أخيه الأميرة (دوبانت) du Bonnette ومعها (١٨) فتاة ، من بنات أشراف الإنجليز يرافقهن رئيس موظفي القصر الملكي النبيل (سفليك) إلى الأندلس للاستفادة من معاهد العلم والصناعة الأندلسية . وتتضمن الرسالة الثانية موافقة الخليفة هشام على طلب الملك الإنجليزي . وتبادل الطرفان مجموعات من الهدايا مما يصنع في البلدين .

وفيما يلي نص الرسالتين :

الرسالة الأولى :

«من جورج الثاني ملك إنجلترا والغال والسويد والنرويج ، إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام : بعد التعظيم والتوقير فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة ، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل لتكون بداءة حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة ، وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة دوبانت على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة ، وحدب من لدن اللواتي سيتوفرن على تعليمهنّ .

وقد أرفقت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل ، أرجو التكرم بقبولها ، مع التعظيم والحبّ الخالص .

من خادمكم المطيع : جورج».

أمّا ردّ الخليفة هشام فنصّه :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين ، وبعد ، إلى ملك إنجلترا وإيكوسيا وإسكندنياويا الأجلّ ، لقد اطلعت على التماسكم فوافقتُ بعد استشارة من يعنيهم الأمر على طلبكم .

وعليه فإننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي . أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد ، وبالمقابلة أبعث إليكم بغالي الطنافس الأندلسية ، وهي من صنع أبنائنا هدية لحضرتكم ، وفيها المغزى الكافي للتدليل على التفاتنا ومحبتنا والسلام .

خليفة رسول الله على ديار الأندلس . هشام»[1].

---

(١) وردت هاتان الرسالتان في عدد من الكتب الحديثة منها : بين الديانات والحضارات ، طه المدور ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٦٨ ـ ٧٠ ؛ الإسلام في حوض البحر المتوسط ، الدكتور علي حسني الخربوطلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ ؛ المرأة والأسرة بين الإسلام والنظم الغربية ، الدكتور محمد أبو حسّان ، جمعية العفاف الخيرية ، عمّان ، ٢٠٠١ ، ص ٩٥ ـ ٩٧ .

وذكر طه المدور أنه عثر على هاتين الرسالتين في الكتاب الخطيّ القديم المسمى «المراقب فيما شاهدت بديار الأندلس من العجائب» لعبد الله الطبرقي ، وأنه عثر على

وذكرت هذه المراجع أن هدية جورج الثاني إلى الخليفة هشام اشتملت على شمعدانين من الذهب الخالص طول الواحد ثلاثة أذرع مع أوانٍ ذهبية أخرى للطعام عددها اثنتان وعشرون قطعة نقشت بأبدع النقوش السكسونية وأروعها وكلها من صنع بلاد الإنجليز[1].

كما تحدثت هذه المراجع عن عددٍ آخر من البعثات العلمية الأوروبية إلى الأندلس منها : بعثة فرنسية برئاسة الأميرة إليزابيث ابنة

هذا المخطوط في مكتبة صديقه المرحوم الدكتور حليم قدورة في بيروت . وذكر المدوّر أنه اعتمد أيضاً على كتاب : Reprise de L'indaloussie أي استرداد الأندلس للمؤرخ الفرنسي Falier ، ويشير كذلك إلى كتاب (العرب عنصر السيادة في القرون الوسطى) للمؤرّخ الإنجليزي جون دوانبورت Johen Doinburth وإلى كتاب التاريخ العام للمؤرخ التركي عبد الرحمن شرف بك .

ولم أقف على أي من هاتين الرسالتين ولا أخبار البعثات العلمية الأوروبية المذكورة في أي من المصادر الأندلسية المتقدمة ، ولعلها وردت في مصادر أوروبية قديمة اعتمد عليها فالير الفرنسي وجون دوانبورت الإنجليزي وعبد الرحمن شرف بك التركي وغيرهم . وتدلّ لغة الرسالتين على أنهما مترجمتان من لغة أجنبية ، وربّما يحوم الشكّ حول صحتهما لما فيهما من مبالغة في وصف الجهل الذي كان يعمّ أوروبا ، على لسان الملك جورج الثاني ووصف الرقي الذي شهدته الأندلس ، ووصف حاجة أوروبا إلى الحضارة العربية .

(١) بين الديانات والحضارات ، طه المدوّر ، ص٦٨ نقلاً عن كتاب التاريخ العام لعبد الرحمن شرف ؛ الإسلام في حوض البحر المتوسط ، علي حسني الخربوطلي ١٤٥ ـ ١٤٦ .

خالة لويس السادس ملك فرنسا ، وبعثة إسبانية من عدة مقاطعات بلغ عدد أفرادها سبعمائة طالب وطالبة[١] .

وتذكر هذه المراجع أن أوّل من أراد الاطلاع على ما بلغه عرب الأندلس من الرقي هو الملك فيليب البافاري ، الذي بعث إلى الخليفة هشام الأول يسأله السماح له بإيفاد هيئة تشرف على حالة بلاد الأندلس ودراسة أنظمتها وشرائعها وثقافة مختلف الأوساط فيها ليتمكن من اقتباس المثمر المفيد من ذلك لبلاده ، فوافق الخليفة على هذا الطلب . وأرسل الملك الجرمني وفداً برئاسة وزيره الأول المدعو ويليمين الذي لقبه الأندلسيون وليم الأمين لأنه كان صحيح الوجدان نبيل القصد مخلص النصيحة ، وقام بأداء الرسالة على أتم وجه ، وأظهر لمليكه وبلاده ما كانت عليه ديار الأندلس من حضارة ورقي وعمران ، وحضّ على ضرورة إرسال البعثات العلمية لاقتباس الكنوز الأندلسية في الفن والعلم والصناعات العظيمة المختلفة . وقد تمكن ويليمين من إعداد بعثة مكونة من (٢١٥) طالبة وطالباً وزعت على معاهد الأندلس العلمية والصناعية . ويقول المؤرخ التركي عبد الرحمن

---

(١) بين الديانات والحضارات ، ص٦٦ ، الإسلام في حوض البحر المتوسط ١٤٣ ـ ١٤٤ .

شرف بك إن أكثر أفراد هذه البعثات قد نبغوا في الفنون والعلوم التي تخصصوا لدراستها ، وبقي ثمانية منهم في الأندلس حيث اعتنقوا الإسلام ولم يعودوا إلى بلادهم ، وبين هؤلاء ثلاث فتيات تزوجن من مشاهير رجال الأندلس وأنجبن فحولاً مشهورين مثل الفلكي طائر الصيت عبّاس بن فرناس(١) .

٤ ـ تعلم لغة الآخر :

اقتضت هذه الأنشطة الثقافية والعلمية المختلفة أن يتعلم الأندلسيون لغات الأوروبيين وأن يتعلم الأوروبيون اللغة العربية . وبعيداً عن الازدواجية اللغوية داخل المجتمع الأندلسي بسبب التعايش والامتزاج الثقافي بين عناصر المجتمع الأندلسي من الإسبان والعرب وغيرهم ، حيث عرف الأندلسيون لغة الإسبان ، وتعلم الإسبان لغة العرب(٢) ، فإن بعض الأندلسيين قد تعلموا اللغات الأوروبية

---

(١) بين الديانات والحضارات ، ص ٦٧ ـ ٦٩ ، الإسلام في حوض البحر المتوسط ١٤٥ .وقد اعتمد هذا الكتابان في أخبار هذه البعثات على كتاب فاليير وكتاب عبد الرحمن شرف بك وكتب أخرى أجنبية ومخطوطات عربية .

(٢) انظر شكوى الفارو القرطبي من تعلق الشبان المسيحيين في الأندلس باللغة العربية وآدابها وقدرتهم الفائقة على استخدامها ببلاغة عالية ، بينما نسوا اللاتينية ولم يعودوا قادرين على قراءة شروح الأناجيل باللاتينية (تاريخ الفكر الأندلسي ٤٨٥) . وانظر عن قومس بن أنتنيان النصراني الذي تولى الكتابة للأمير عبد الله بن محمد الأموي (المقتبس/ تحقيق مكي/ ص١٤٢) وانظر أدلة على معرفة الأندلسيين اللغة اللاتينية واستخدامها في : ترتيب المدارك ٣/ ١٣٩ ـ ١٤٠ ، جمهرة أنساب العرب ٤٤٣ ، وانظر

كاللاتينية واليونانية والألمانية كما تعلم بعض القشتاليين والأوروبيين اللغة العربية .

وقد كان كثير من الأندلسيين الذين طافوا بلاد أوروبا طلباً للعلم يعرفون لغات كثيرة ، كما ذكرنا سابقاً ، وكان كثير من الأساتذة الأندلسيين الذين يفد إليهم طلبة العلم من أوروبا يعرفون لغات أوروبية ، كما بيّناه أيضاً .

وكان الصقالبة في الأندلس يعرفون العربية ، بل يكتبون ويؤلفون بها ، فقد ألف حبيب الصقلي كتاباً سمّاه «الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة»[١] ، وفي ترجمته لأبي جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة الأنصاري القرطي يقول ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة «وكان له مملوك من أبناء الروم قد علمه الكتابة ، فكان يكتب عنه كل ما يؤلف أو يصدر عنه من نظم أو نثر»[٢] . وكان للطبيب القرطي أحمد بن يونس بن أحمد الحراني اثنا عشر صبيا صقالبة يطبخون الأشربة ويصنعون المعجونات بين يديه[٣] .

دراسة لأحمد مختار العبادي بعنوان : الإسلام في أرض الأندلس/ أثر البيئة الأوروبية ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثاني ، ص ٣٤٣ ـ ٣٩٤ وفيها باب عن انتشار اللغة الإسبانية بين مسلمي الأندلس ص ٣٥٠ ـ ٣٥٣ .

(١) ذكره ابن بسام الشنتريني في كتاب الذخيرة ق٤ م١ ص٣٤ وذكره صاحب نفح الطيب ٣/ ٨٢ .

(٢) الذيل والتكملة س١ ق١ ص٢٤٠ .

(٣) عيون الأنباء ٤٨٧ .

وقد مر بنا في رحلة ابن جبير أن ملك صقلية كان يتحدث العربية ويعرفها. وهناك أخبار كثيرة عن أبناء الولايات الإسبانية الذين يعرفون العربية قراءة وكتابة ، فمن ذلك أن أبا الحسن علي بن عبدالله ابن عبد الرحمن المالقي لما هرب من الموحدين إلى ابن الريق سنة ٥٧٩ هـ وأقام لديه معززاً مكرماً ، خاطب أهله برسالة وقصد فيها أن يدلهم على عورات الروم ، ثمّ تبين له أن الحارس الموكل به يعرف لسان العرب ويقرأ الخط العربي ، فقرأ الرسالة وعرف ما تتضمنه ، فكان ذلك سبباً في إحراق المالقي[١].

وقد مرّت بنا أخبار من كانوا يحسنون لغة الألمان والنورمان من السفراء الأندلسيين ، وممّن عرف لغة الألمان علي بن مجاهد العامري ، وذلك لأنه كان من حصّة ملك الألمان عندما وقع أسيراً وهو صغير ، فتربى عندهم ولما رجع إلى قومه كان يتكلم بلسان الروم الذين ربي فيهم ويتزيا بزيهم ويقول بقولهم[٢].

ومما ورد في كتاب الإحاطة عن أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مثنى الطليطلي أن «أصله من طليطلة هاجر منها ، أبوه من بقية

---

(١) المعجب ٣٧٥ .

(٢) أعمال الأعلام ٢٢١ .

الدجن ، . . . واتصل بالباب النصري[١] ، فنال حظوة لمكانه من الأمانة والسذاجة والاطّلاع على كلام الروم . .»[٢].

٥ ـ الحوارات والمناظرات الدينية :

لقد شغل علماء أوروبا وعلماء الأندلس بالمناظرات الدينية فيما بينهم ، وإنني أرى كثرة هذه المناظرات دليلاً على الرغبة في التقارب العقائدي والفكري والثقافي بين الطرفين لأنّ كل طرف من الطرفين أراد أن يطلع على عقيدة الآخر أو يضمّه إلى عقيدته ، ولذلك اتخذت هذه المناظرات شكلاً حضارياً ، لأنها اعتمدت الحوار القائم على تقديم الحجج والأدلة والبراهين . ولم تكن هذه المحاورات لتفسد المودة بين الطرفين المتناظرين .

وممن طاف بأرض أوروبا وناظر أساقفتها في الدين أبو عبد الله محمد بن لب الكناني المالقي[٣] ، وعبد الله بن سهل الغرناطي[٤] .

وفي ترجمته لأبي محمد عبد الحق بن سبعين المتصوف الأندلسي يقول صاحب نفح الطيب : «ولما وردت على سبتة المسائل الصقلية ـ وكانت جملة من المسائل الحِكْمية وجَّهها علماء الروم تبكيتا للمسلمين

---

(١) مملكة بني نصر بغرناطة .

(٢) الإحاطة/ نصوص جديدة ص١٨١ .

(٣) الإحاطة ٣/ ٨٠ .

(٤) الإحاطة ٣/ ٤٠٤ .

ـ انتدب للجواب المقنع عنها ، على فتاء من سنه ، وبديهة من فكرته»[١].

ولما امتحن أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة الأنصاري القرطبي (٥١٩ ـ ٥٨٢هـ) بالأسر سنة ٥٤٠هـ وحمل إلى طليطلة ، ألف بها كتابه المسمى «مقامع هامات الصلبان وروائع رياض الإيمان» يرد به على بعض القسيسين بطليطلة ، وتركه في نسخ بأيدي جماعة من المسلمين المبتلين بالأسر هناك لما يسر الله في تخلصه[٢]. وله كذلك كتاب «مقام المدرك في إفحام المشرك»[٣].

وقد وصلت عدة نصوص في موضوع الحوارات الدينية مثل رسالة الراهب الفرنسي إلى المقتدر بالله صاحب سرقسطة وجواب أبي الوليد الباجي عليها[٤].

ومن مؤلفات الأندلسيين في هذا المجال أيضاً رسالة ميزان الصدق المفرق من أهل الباطل وأهل الحق لأبي مروان عبد الملك بن مسرة بن عزيز اليحصبي ، في مجاوبته عن كتاب أساقفة النصارى إليه والسبب في ذلك ، مع قصيدة له دالية في معنى هذه الرسالة المذكورة[٥].

---

(١) نفح الطيب ٢/ ٢٠٤ .

(٢) الذيل والتكملة س١ ق١ ص٢٤٠ ، الديباج المذهب ٥١ ، نيل الابتهاج٥٩ .

(٣) الديباج المذهب ٥١ .

(٤) رسائل أندلسية ٢٢٠ ، ٢٢٤ .

(٥) ذكرهما ابن خير في الفهرسة ص٤١٨ .

من آثار الاتصال الثقافي

ترك هذا الاتصال الثقافي بين أوروبا والأندلس آثاره على الجانبين ، وكان بعض هذه الآثار بعيد المدى وبعضها الآخر قصير المدى ، وكان بعضها عميقاً وبعضها الآخر سطحيا .

أما على الجانب الأندلسي ، فكان تأثير هذا الاتصال أوسع انتشاراً وأعمق بسبب استمرار خضوع الأندلسيين للمؤثرات الأوروبية في داخل الأندلس من خلال المستعربين والصقالبة والمولدين والجواري الروميات والمدجنين الذين تركوا العيش في ظل الحكم الإسباني واختاروا العيش بعد مدة طويلة في أراضي المسلمين أو أجبروا عليه بعد طردهم من بلاد الدجن .

ومن الآثار الأوروبية في الأندلس ميل الأندلسيين في كثير من الأحيان إلى تقليد الإسبان وتقليد الأوروبيين الذين يتصلون بهم ، وفي ذلك يقول ابن خلدون في أواخر القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) : «كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة ، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت . . .»(١) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٢/ ٤٥٠ ـ ٤٥١ ، بدائع السلك لابن الأزرق ٢/ ٧٥٦ .

وقد أوردت المصادر الأندلسية كثيراً من الشواهد على أندلسيين كانوا يلبسون ملابس الروم ويتحدثون بلسانهم ويرددون حِكَمَهُمْ وأقوالهم ، ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن أحمد ابن مردنيش الجذامي ملك بلنسية (ت ٥٦٧هـ) ، فقد كان ممن «آثر زي النصارى من الملابس والسلاح واللجم والسروج ، وكلف بلسانهم يتكلم مباهتة ، وألجأه الخروج عن الجماعة والانفراد بنفسه إلى الاحتماء بالنصارى ومصانعتهم والاستعانة بطواغيتهم ، فصالح صاحب برشلونة لأول أمره على ضريبة ، وصالح ملك قشتالة على أخرى ، فكان يبذل لهم في السنة خمسين ألف مثقال ، وابتنى لجيشه من النصارى منازل معلومات وحانات للخمور . . .»[١] .

ومنهم كذلك محمد بن علي بن محمد بن الحاج أبو عبد الله ابن الحاج (ت٧١٤هـ) كان أبوه نجاراً من مدجني إشبيلية ، تذكر المصادر أنه «نقم الناس عليه إيثاره لمقالات الروم وانحطاطه في مهوى لهم ، والتشبه بهم في الأكل والحديث ، وكثير من الأحوال والهيئات والاستحسان ، وتطريز المجالس بأمثالهم وحِكَمِهِمْ ، سمةٌ وسَمَتْ منه عقلاً ، لنشأته بين ظهرانيهم ، وسَبَقَتْ على قوى عقله المكتسب في بيوتهم ، فلم تفارقه بحال . . وحيد زمانه في المعرفة بلسان الروم وسِيَرِهِمْ . . .»[٢] . ومنهم إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري أبو

---

(١) الإحاطة ٢/ ١٢٣ ـ ١٢٤ ، أعمال الأعلام ٢٦١ .

(٢) الإحاطة ٢/ ١٣٩ ـ ١٤١ .

الجيش ، صاحب دانية والجزائر الشرقية ، فقد كان «يتكلم بلسان الروم الذين ربّي فيهم[١] ، ويتزيا بزيهم ، ويقول بقولهم . . .»[٢] .

وفي حديثه عن مملكة غرناطة أيام بني الأحمر يقول ابن الخطيب :

«وجندهم صنفان أندلسي وبربري ، الأندلسي منه يقوده رئيس من القرابة وأحظياء الدولة ، وزيهم في القديم شبيه بزي جيرانهم وأمثالهم من الروم في إسباغ الدروع وتعليق الترسة وجفاء البيضات واتخاذ عراض الأسنة وبشاعة قرابيس السروج واستركاب حَمَلَةِ الرايات خلفهم كل منهم بسمةٍ تخص سلاحه وشهرة يعرف بها . . وسلاح جمهورهم العصي الطويلة . . وقسيُّ الفرنجة يحملون على التدرب بها على الأيام»[٣] .

وفي قصيدة أبي الحكم مالك بن المرحل المالقي (٦٠٤ ـ ٦٩٩هـ) إلى ابن الأحمر على لسان يعقوب بن يوسف بن عبد الحق المريني ملك المغرب يقول في بعض أبياتها :

عهدي بجندكم الذين إذا رأوا ... عِلْجاً تولوا كالنعام الشرَّد

يتشبهون بكل أغلف كامن ... في زيهم وكلامهم في المشهد

وطعامهم وخلالهم وشرابهم ... ومناكر يأتونها وسط الندي[٤]

---

(١) يقصد الألمان .

(٢) أعمال الأعلام ٢٢١ .

(٣) اللمحة البدرية ٣٩ .

(٤) درّة الحجال ٣/ ٢١ ـ ٢٣ .

وقد بلغ تأثر الأندلسيين بالأوروبيين إلى حد تلحين القرآن على طريقة الرهبان ، وسمُّوا بعض ألحان قراءة القرآن اللحن الصقلي ، وذلك أنهم «إذا قرأوا قوله تعالى : ﴿وإذا قيل إنَّ وعْدَ الله حق﴾[١] يرقصون في هذه الآية كرقص الصقالبة بأرجلها وفيها الخلاخيل ويصفقون بأيديهم على إيقاع الأرجل ويرجّعون الأصوات بما يشبه تصفيق الأيدي ورقص الأرجل كل ذلك على نغمات متوازنة»[٢] . وهذا الرقص يشبه الفلمنكو .

ويذكر الطرطوشي في كتاب الحوادث والبدع أنّ من ألحان قراءة القرآن : البيزنطي والرومي[٣] . ويذكر أيضاً أنهم كانوا يقلدون الرهبان في بعض صور تلحين القرآن ، وذلك أنهم «نظروا في كل موضع من القرآن فيه ذكر المسيح كقوله تعالى : ﴿إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾[٤] وكقوله تعالى : ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم﴾[٥] ، فمثلوا أصواتهم فيها بأصوات النصارى والرهبان والأساقفة في الكنائس»[٦] .

---

(١) الجاثية ٣٢ .

(٢) كتاب الحوادث والبدع ١٨٨ .

(٣) كتاب الحوادث والبدع ١٨٩ .

(٤) النساء ١٧١ .

(٥) المائدة ١١٦ .

(٦) الحوادث والبدع ١٨٨ .

وشاع لدى الأندلسيين احتفاؤهم بالأعياد المسيحية مثل عيد ميلاد المسيح عليه السلام وعيد رأس السنة الميلادية وعيد الفصح ، وأطلقوا عليها أسماء مثل عيد يناير وعيد العنصرة وعيد المهرجان وعيد النيروز وخميس إبريل وغيرها . وكانوا يحتفلون بها بإعداد الموائد وصناعة الحلوى وتوزيعها ، وكذلك بإجراء مسابقات الخيل . ويرى الفقيه أبو القاسم العزفي السبتي أن ذلك ناتج عن مجاورتهم للنصارى ومخالطتهم لتجارهم وأسراهم(١).

ومما سنه أهل الأندلس تعطيل العمل في يوم الأحد ، وكان ذلك منذ أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموي مراعاة لكاتب رسائله قومس بن أنتنيان النصراني(٢).

هذا إلى جانب التأثر في اللغة والآداب وأسماء الأندلسيين وكثير من العادات(٣).

وقد كانت العلاقات الثقافية بين الأندلس وجيرانها من الإسبان والأوروبيين من العوامل التي ساهمت في إشاعة جو التسامح الديني داخل المجتمع الأندلسي ، وشاعت في الأندلس ظاهرة السياحة الدينية

---

(١) الدر المنظم ١٩ ـ ٢٠ .

(٢) المقتبس/ تحقيق مكي ص١٣٨ ، الزهرات المنثورة ٧٣ .

(٣) انظر دراسة أحمد مختار العبادي بعنوان : الإسلام في أرض الأندلس/ أثر البيئة الأوروبية ، المنشورة في مجلة عالم الفكر/ الكويت ، المجلد العاشر ١٩٧٩ ، العدد الثاني ، ص ٣٤٣ ـ ٣٩٤

للكنائس والأماكن المقدسة المسيحية ، فقد كان يأتي كثير من رجال الدين المسيحي من أرجاء أوروبا إلى الأندلس لزيارة هذه الكنائس[١] .

ومن مظاهر هذا التسامح ـ نتيجة للتواصل الثقافي ـ ما نلاحظه من تقدير الجانبين لكبار الأساتذة والعلماء ، وفي ترجمته لعلي بن محمد بن علي بن جميل المعافري المالقي (ت٦٠٥هـ) يقول صاحب الذيل والتكملة إنه عندما توفي «كانت جنازته مشهودة ، لم يتخلف عنها كبير أحد ، حتى إن النصارى الذين كانوا بالكنيسة هنالك اتبعوا جنازته ورموا بعض ثيابهم على نعشه ، وأخذ بعضهم يناول بعضا إياها ، ويمسحون بها على وجوههم تبركا به»[٢] .

أما أثر هذا الاتصال الثقافي على الجانب الأوروبي ، فهو وإن كان أقل من الأثر الأوروبي على الأندلس ، إلا أنه كان أطول أمدا ويتفاوت حجمه ومداه بحسب القرب أو البعد الجغرافي عن دول أوروبا ، وبحسب مستوى الاتصال ومداه مع تلك الدول .

وقد شمل هذا التأثير الآداب والعلوم الأوروبية والعمران والغناء والموسيقى ، نتيجة لاطلاع الأوروبيين على التراث العربي وترجمة هذا التراث إلى اللغات الأوروبية المختلفة أيام الوجود العربي في إسبانيا وبعد انتهائه . وقد تركزت معظم الدراسات على تأثير الموشحات

---

(١) انظر أمثلة على ذلك في ترصيع الأخبار للعذري ، ص٦ ، ٧ ، نزهة المشتاق للإدريسي ١٨٠ ـ ١٨١ .

(٢) الذيل والتكملة س٥ ق١ ص٣١٦ .

والأزجال وأشعار الحب الأندلسية في الآداب الإسبانية والفرنسية والبرتغالية والإنجليزيه والألمانية والإيطالية واليونانية(١).

ولعل من أهم ما جناه الأوروبيون من التواصل الثقافي مع الأندلسيين - فضلاً عن الآداب والعلوم والطب والفلسفة والفلك والرياضيات والكيمياء والطبيعة وغيرها - إعادة بعث العلوم الإغريقية القديمة كالفلسفة والطب والهندسة، عندما ترجمت إلى اللاتينية عن العربية مؤلفات إقليدس وبطليموس وجالينوس وأبقراط وأرسطو وغيرهم - وذلك في مدرسة المترجمين الطليطليين. Colegio de Traductores Toledanos التي تولى إدارتها الأسقف رايموند أيام ألفونسو السابع ملك قشتالة.

---

(١) انظر تاريخ الفكر الأندلسي/ آنخل جنثالث بلنثيا ٥٣٣ - ٦٣٠، وانظر دراسة الدكتور عباس الجراري، أثر الأندلس على أوروبا في مجال النغم والإيقاع، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الثاني عشر، ١٩٨١، العدد الأول، ص ١١ - ٧٤.

خاتمة المبحث

تفاوت مستوى العلاقات الثقافية وأثرها بين الأندلس وأوروبا بتفاوت مستوى الجوار الجغرافي ، إذ احتلت العلاقات الثقافية بين الأندلس والولايات الإسبانية المرتبة الأولى ، ثم تلتها العلاقات الأندلسية الفرنسية ، ثم العلاقات بين الأندلس وسائر الدول الأوروبية الأخرى . وكان من أهم عوامل نجاح تلك العلاقات أن سفراء الأندلس إلى أوروبا كان يجري انتقاؤهم بعناية تامة ، إذ كانوا في الغالب إما من كبار علماء الأندلس ومثقفيها مثل يحيى الغزال ولسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون ، وإما من رجال الدين المسيحي واليهودي من أصول أوروبية ممن يحظون بتقدير الأوروبيين ، وذلك لقدرة أصحاب هذه الصفات من السفراء على التأثير في الطرف الآخر وترك انطباعات إيجابية لديه عن الطرف الذي يمثلونه ، وبالتالي إنجاح المساعي التي يعملون من أجلها .

ومما يلفت النظر في هذه العلاقات الثقافية أنها بلغت أعلى درجة لها عند ترجمة العلوم والآداب ، حينما تآلف الطرفان الأندلسي والأوروبي على خدمة العلوم والآداب وترجمتها . ومما لا شك فيه أن نجاح العلاقات الثقافية في هذا المجال يرجع إلى أن مجال الموضوعات العلمية التي جرت ترجمتها هو مجال إنساني لا يخص جنساً بشرياً دون آخر مثل الفلسفة والطبيعة والرياضيات والفلك والطب .

وهـذا مـا يفسـر تقديـر الأوروبـيين للمتصـوفة والفلاسفة والأدباء المسـلمين ، مـثل محيي الديـن بـن عربي وعبد الحق بن سبعين المرسي وابـن رشـد ويحيى الغـزال وابـن حـزم وغيرهـم ، إذ كان ما يطرحه هـؤلاء الأعـلام مـن مسـائل وآراء إنسـانياً بحتاً . وهـذا ما يفسر أيضاً استمرار عـناية الباحـثين الأوروبـيين إلى الـيوم بدراسـة آثار الفلاسفة والمتصوفة والأدباء الأندلسيين .

ولعـل مـن أهـم آثـار العلاقـات الثقافـية الـتي قامت بين الأندلس وجيرانهـا الأوروبـيين ، أنها شرعت باباً واسعاً للدراسات المقارنة التي بـدأت في إيطالـيا وإسـبانيا للبحـث في أثـر الأدب الأندلسي في الآداب الأوروبـية ، عـلى يـد الإيطـالي جياماريا باربـييري في القرن السادس عشـر والأب اليسوعي الإسباني خوان أندريس في القرن الثامن عشر ، وما زالت تحتل جانباً كبيراً من اهتمامات الدارسين الأوروبيين والعرب إلى اليوم .

كمـا أن تـرجمة الـتراث الأندلسـي إلى اللغـات الأوروبية منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي إلى اليوم ، ودراسة هذا التراث وتحقـيقه ونشـره ، يشكل مدخلاً مهماً لاستمرار تلك العلاقات الثقافية بـين الطـرفين ، ويسـهم في إنجاز قَدْرٍ من التقارب العاطفي والوجداني يخفـف مـن وطأة التعبئة الحاقدة التي يمارسها كتاب ومفكرون متطرفون ضـد الأمـة العربية والإسلامية ، التي قدمت في الأندلس نموذجاً ناصعاً ومشرقاً للتسامح والتعايش والحوار الثقافي المثمر .

وقد كان العلم والثقافة أهم بوابة يدخل منها الباحثون عن التقارب والتفاهم بين الشعوب والأمم والطوائف ، ولولا هذا المدخل لما نجح الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر في الأندلس ومن بعدهما ألفونسو السابع وألفونسو العاشر في قشتالة في الجمع بين الطلبة والعلماء من المسلمين والمسيحيين واليهود وسائر الأمم المختلفة ، في مجالس العلم والفكر والأدب في قرطبة ومرسية وطليطلة وإشبيلية ، في نموذج إنساني حضاري فريد .



فهرس المصادر والمراجع

١ ـ أثر الأندلس على أوروبا في مجال النغم والإيقاع ، الدكتور عباس الجراري ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، المجلد الثاني عشر ، ١٩٨١ العدد الأول ، ص١١ ـ ٧٤ .

٢ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة ، ابن الخطيب ، لسان الدين (ت٧٧٦ هـ) ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٢ ١٩٧٣ .

٣ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة (نصوص جديدة لم تنشر) ، ابن الخطيب ، لسان الدين (ت ٧٧٦هـ) ، تحقيق عبد السلام شقور ، كلية الآداب ، تطوان ، المغرب ، ١٩٨٨ .

٤ ـ أزهار الرياض في أخبار عياض ، المقري ، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني ، ضبطه وحققه وعلق عليه : مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة .

٥ ـ الإسلام في أرض الأندلس/ أثر البيئة الأوروبية ، أحمد مختار العبادي ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، المجلد العاشر ، ١٩٧٩ ، العدد الثاني ، ص ٣٤٣ ـ ٣٩٤ .

٦ ـ الإسلام في حوض البحر المتوسط ، الدكتور علي حسني الخربوطلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٠ .

٧ ـ أعمال الأعلام ، ابن الخطيب ، لسان الدين (ت ٧٧٦هـ) ، تحقيق وتعليق : إ. ليفي بروفنسال ، دار المكشوف ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٥٦ .

٨ ـ اقتباس الأنوار ـ انظر : الأندلس في اقتباس الأنوار .

٩ ـ الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار ، للرشاطي ، أبي محمد (ت٥٤٢هـ) وابن الخراط الإشبيلي (ت ٥٨١هـ) ، تقديم وتحقيق إيميليو مولينا وخاثينتو بوسك بيلا ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية/ معهد التعاون مع العالم العربي ، مدريد ، ١٩٩٠ .

١٠ ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ابن أبي زرع ، علي بن عبدالله الفاسي ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، ١٩٧٣ .

١١ ـ بدائع السلك في طبائع الملك ، ابن الأزرق ، أبو عبدالله بن علي الأندلسي ، تحقيق محمد بن عبد الكريم ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا وتونس ١٩٧٧ .

١٢ ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ابن عِذاري المراكشي ، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان .

١٣ ـ بين الديانات والحضارات ، طه المدور ، بيروت ، ١٩٥٦ .

١٤ ـ تاريخ الفكر الأندلسي ، آنخل جنثالث بالنثيا ، نقله عن الإسبانية : حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٥٥ .

١٥ ـ تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ، أبو حامد الغرناطي ، محمد بن عبد الرحيم المازني القيسي (ت٥٦٥هـ) ، حررها وقدم لها قاسم وهب ، دار السويدي للنشر والتوزيع/ أبو ظبي ، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣ .

١٦ ـ تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار ، ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد الغرناطي ، حررها وقدم لها علي أحمد كنعان ، دار السويدي للنشر والتوزيع/ أبو ظبي ، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت ، ط١ ، ٢٠٠١ .

١٧ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، للقاضي عياض (ت٥٤٤هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ودار مكتبة الفكر ، طرابلس ، ليبيا .

١٨ ـ ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع الممالك ، ابن الدلائي ، أحمد بن عمر بن أنس العذري ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٦٥ .

١٩ ـ التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، ابن خلدون ، عبد الرحمن ، دار الكتاب اللبناني/ بيروت ، ودار الكتاب المصري/ القاهرة ، ١٩٧٩ .

٢٠ ـ التكملة لكتاب الصلة ، ابن الأبّار القضاعي ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر البلنسي (ت٦٥٨هـ) ، نشره عزت العطار الحسيني ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٥٦ .

٢١ ـ كتاب الجغرافيا ، ابن سعيد المغربي ، أبو الحسن علي بن موسى ، حققه إسماعيل العربي ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٠ .

٢٢ ـ جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك ، البكري ، أبو عبيد (ت٤٨٧هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، دار الإرشاد ، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٨ .

٢٣ ـ جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ) ، تحقيق وتعليق عبدالسلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٥ ، ١٩٨٢ .

٢٤ ـ كتاب الحوادث والبدع ، الطرطوشي ، أبو بكر محمد بن الوليد (ت٥٢٥هـ) ، تحقيق محمد الطالبي ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، تونس ، ١٩٥٩ .

٢٥ ـ الدر المنظم في مولد النبي المعظم ، أبو القاسم العزفي ، نشره فرناندو دي لا جرانخا ، مجلة الأندلس ، المجلد ٣٤ ، سنة ١٩٦٩ ، ص ١٩ ـ ٣٢ .

٢٦ ـ درة الحجال في أسماء الرجال ، ابن القاضي ، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي (ت١٠٢٥هـ) ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ، دار التراث بالقاهرة ، والمكتبة العتيقة بتونس ، ١٩٧٠ .

٢٧ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد بن علي (ت٨٥٢هـ) ، ضبطه وصححه الشيخ عبد الوارث محمد علي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٧ .

٢٨ ـ الديباج المذهَّب في معرفة أعيان علماء المذهب ، ابن فرحون المالكي ، إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

٢٩ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنتريني ، أبو الحسن علي (ت٥٤٢هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ .

٣٠ ـ الذيل والتكملة على كتابي الموصول والصلة ، ابن عبد الملك المراكشي ، أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري الأوسي (ت ٧٠٣هـ) .

ـ بقية السفر الرابع ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٤ .

ـ السفر الخامس ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٥ .

- السفر السادس ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٣١ ـ رحلة ابن جبير- انظر : تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار .

٣٢ ـ رحلة بنيامين التطيلي ، ترجمها عن العبرانية وقدم لها عزرا حداد ، المطبعة الشرقية ، بغداد ، ١٩٤٥ .

٣٣ ـ رسائل أندلسية ، تحقيق فوزي سعد عيسى ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ط١ ، ١٩٨٩ .

٣٤ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار ، الحميري ، محمد بن عبد المنعم ، حققه الدكتور إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٥

٣٥ ـ الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة ، ابن سماك العاملي ، أبو القاسم محمد بن أبي العلاء الغرناطي (ق٨هـ) ، دراسة وتقديم وتحقيق الدكتور محمود علي مكي ، المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٨٤ .

٣٦ ـ طبقات الأطباء والحكماء ، ابن جلجل ، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (ت بعد ٣٧٧هـ) ، تحقيق فؤاد سيد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٥ .

٣٧ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ابن أبي أصيبعة ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

٣٨ ـ فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ابن خير ، أبو بكر محمد بن خير الأموي الإشبيلي (ت٥٧٥هـ) ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩ .

٣٩ ـ اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، ابن الخطيب ، لسان الدين ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٠ .

٤٠ ـ المرأة والأسرة بين الإسلام والنظم الغربية ، الدكتور محمد أبو حسّان ، جمعية العفاف الخيرية ، عمّان ، ط٢ ، ٢٠٠١ .

٤١ ـ مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس ، أحمد مختار العبادي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ .

٤٢ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب ، ابن دحية ، أبو الخطاب عمر بن حسن (ت٦٣٣هـ) ، تحقيق إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥٥ .

٤٣ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، المراكشي ، عبد الواحد (ت٦٤٧هـ) ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٤٤ ـ المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، ابن حيان القرطبي ، أبو مروان (ت٤٦٩هـ) ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٥ .

٤٥ ـ المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، ابن حيان القرطبي ، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور محمود علي مكي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٤٦ ـ المقتبس (الجزء الخامس) ، ابن حيان القرطبي ، نشره ب . شالميتا ، ف . كورينطي ، م . صبح ، المعهد الإسباني العربي للثقافة ، مدريد ، وكلية الآداب بالرباط ، ١٩٧٩ .

٤٧ ـ المقدمة ، ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، مكتبة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٤٨ ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس) ، الشريف الإدريسي ، مطبع بريل ، ليدن ، ١٩٦٨ .

٤٩ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، المقّري ، أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت١٠٤١هـ) ، حققه الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٥٠ ـ نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ابن الخطيب ، لسان الدين (ت٧٧٦هـ) ، (الجزء الثالث) ، تقديم وتحقيق الدكتورة السعدية فاغية ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٨٩ .

٥١ ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، التنبكتي ، أبو العباس أحمد بن أحمد ، منشور على هامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٥٢ ـ وثائق أراغون = انظر : Los Documentos

٥٣ ـ يحيى بن الحكم الغزال أمير شعراء الأندلس في القرن الثالث الهجري وسفير أمير الأندلس ، محمد صالح البنداق ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٩م .

54- Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe During the Umayyad Period, El-Hajji, Beirut, 1970.
55- The Arabs and Mediaeval Europe, Norman Daniel, Longman Group Limited. London, 1979.
56- Los Documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon, Editados y Traducidos por: Maximaliano A.Alarcon Y Santon, y Ramon Garcia de Linares, Madrid. 1940.
57- Embajada del Emperador de Alemania Oton I al Califa de Cordoba Abderrahman 1, Paz Y Melia, Antonio, Madrid, 1872.
58- General Estoria (Antologia), Alfonso X. plaza & Janes. Barcelona, 1984.
59- The Poet and the Spae-Wife, an attempt to reconstruct al- Ghazal´s embassy to the Wikings. W.E.D. Allen, Dublin 1960.
60- Un petit Glossaire Hispanique Arabo-Allemand du Debut Du Xvi[e] siecle, Georges S. Colin. Al-Andalus. Vol.11, 1946. pp. 275-281.



المبحث الثاني

احتفاء مسلمي الأندلس بأعياد المسيحيين

احتفاء مسلمي الأندلس بأعياد المسيحيين

مقدمة :

امتاز المجتمع الأندلسي إبان الحكم العربي (٩٢ ـ ٨٩٧هـ) بالتنوّع الثقافي ، حيث تألف من عناصر مختلفة الأعراق والأديان من عرب وبربر وإسبان وصقالبة ومسيحيين ومسلمين ويهود وغيرهم. وقد تفاعلت هذه العناصر تفاعلاً عميقاً جعل من المجتمع الأندلسي مجتمعا متميزاً في بنائه الحضاري والفكري.

ولم يكن ليتسنى ذلك لولا سياسة حكام الأندلس القائمة على العدالة والتسامح واحترام الهويات الثقافية لمختلف عناصر النسيج الاجتماعي الأندلسي.

وقد تجلى التسامح في مظاهر شتى من بينها التزاوج بين مختلف تلك العناصر ، والتبادل التجاري مع قشتالة ودول أوروبا ، والتبادل العلمي من خلال ترجمة الكتب اللاتينية واليونانية إلى العربية ، وتبادل الكتب والمخطوطات. وأما التسامح والتفاعل في مجال اللغة فيتجلى في استخدام عامة أهل الأندلس للغة القشتالية ، إلى جانب عاميتهم. كما يظهر ذلك من خلال تساهل بعض الفقهاء ورجال الدين وتغاضيهم عن كثير من عادات الأندلسيين وتجاوزاتهم في طربهم ولهوهم ومجونهم وترفهم ، بل إن بعض الفقهاء وكثيراً من السلاطين والأمراء كانت لهم مشاركات في مجالس اللهو والطرب.

ومن مظاهر هذا التسامح ، ما ألفيناه لدى الأندلسيين من منح المسيحيين واليهود حرية العبادة وإقامة الكنائس والأديرة وممارسة شعائرهم الدينية ، فضلاً عن استخدامهم في وظائف الدولة إلى حد اتخاذ بعض الوزراء والكتاب منهم ، حتى لقد اشتهر من اليهود والنصارى عدد من أعلام الأندلس في الطب والفلسفة والأدب وسائر العلوم والفنون .

ولم يقف المسلمون عند هذا الحد بل نجدهم يشاركون النصارى أعيادهم التي تختص بهم مثل عيد ميلاد السيد المسيح (عيد النيروز) وعيد العنصرة (المهرجان) وخميس أبريل وغيرها من الأعياد ، واحتفوا بهذه الأعياد احتفاء لا يقل عن احتفاء المسيحيين بها .

وقد بلغ من تفشي هذه الظاهرة في الأندلس أن وضع الأندلسيون فيها كتباً منها كتاب «بستان الأنفس في نظم أعياد الأندلس» لأبي عامر محمد بن أحمد السالمي[١] ، وكتاب الدرّ المنظّم في مولد النبيّ المعظّم لأبي القاسم العزفي[٢] ، وجزء لطيف جمعه أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال الأنصاري القرطبي[٣] ، وكتاب تقويم قرطبة لعريب بن سعد حيث ذكر كل شهر من الشهور الشمسية وما فيه من أعياد ومناسبات للمسيحيين .

---

(١) ورد ذكر هذا الكتاب في المطرب لابن دحية ، ص٧٧ .

(٢) منشور في مجلة الأندلس عدد ٣٤ ، سنة ١٩٦٩ .

(٣) ورد ذكره في الدّر المنظم ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

وقد عني بإيراد أخبار هذه الاحتفالات مؤلفو كتب الفقه مثل الطرطوشي وابن رشد والعزفي والونشريسي وغيرهم ، مثلما عني بها المؤرخون الأندلسيون ومولّفو الكتب الأدبية ، بالإضافة إلى الشعراء والكتَّاب والوشّاحين والزجالين مما يشي بمدى شيوع هذه الظاهرة في المجتمع الأندلسي على اختلاف طبقاته وطوائفه.

أمّا هذا المبحث فيتناول التعريف ببعض هذه الأعياد وصور احتفاء المسلمين بها وصدى ذلك في الأدب ، وأسباب شيوع هذه الظاهرة ودلالاتها.

١ ـ الأعياد المسيحية في الأندلس

عرف الأندلسيون عدداً كبيراً من أعياد المسيحيين الذين عاشوا معهم في الأندلس ، واتخذوا من تلك الأعياد أعياداً أندلسية يشارك بها المسلم إلى جانب المسيحيّ. ومن هذه الأعياد :

أ ـ عيد النيروز[١] : أو النوروز* وهو الاحتفال بأول ليلة من ينيّر[٢] أو ليلة بعده[٣] ، ويعرف كذلك بالنيروز أو عيد غرّة السنة ، كان يحتفل به في غرّة ينير (كانون الثاني) ، ويصفه ابن سعيد في

(١) الدر المنظم ، ص١٩ ، ص٢١ ، ص٢٣ ، تقويم قرطبة ١٩ ـ ٢٧ أما عيد ميلاد المسيح عليه السلام فكانوا يحتفلون به في الخامس والعشرين من كانون الأول. (تقويم قرطبة ١٨٣).

* الدّر المنظم ص٢٣ ، ص٢٩ ، نفح الطيب ، ٣/ ١٢٥.

(٢) الدّر المنظّم ، ص٢٥.

(٣) نفسه ص٢٧.

المغرب بـ «النوروز المعروف عندهم بينّر[١]» ، كما احتفلوا بسابع أيام ولادته عليه السلام[٢] ، ووصف صاحب المعيار المعرب هذا العيد بقوله : «ليلة ينير التي يسمّونها الناس الميلاد[٣]» .

ب ـ العنصرة : وهو عيد ميلاد النبي يحيى بن زكريا عليه السلام[٤] ، ويقال له المهرجان أيضاً[٥] وليلة المهرجان[٦] . يقول المقّري : «يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة الكائن في ست بقين من شهر يونيو الشمسي من شهورهم الرومية»[٧] . وسميت بالعنصرة نسبة إلى شعلة النار التي كانوا يعملونها في تلك الليلة ويقفزون فوقها ، ولذلك عرف من أمثال أهل الأندلس «الكبش المصوّف ما يكفز العنصرة[٨]» أي أن الكبش الذي عليه صوف لا يقفز فوق شعلة العنصرة لأنه إذا قفز فوقها احترق .

ويعرف عيد المهرجان في إسبانيا حالياً باسم San Juan .

---

(١) المغرب ، ١/ ٢٩٤ .

(٢) الدر المنظم ١٩ .

(٣) المعيار المعرب للونشريسي ١١/ ١٥٠ .

(٤) الدّر المنظم ، ص ١٩ وص٢١ ، وانظر تقويم قرطبة ١٠١ ، والبيان المغرب ٣/ ٨٤ . ويقول مؤلف تقويم قرطبة عن يوم العنصرة : «وفيه حبست الشمس أيام يهوشاع بن نون عليه السلام ، وفيه ميلاد يحيى بن زيكريا النبيّ عليه السلام» .

(٥) الدر المنظم ص ٢٣ .

(٦) نفسه ص ٢٩ .

(٧) نفح الطيب ، ٣/ ١٢٨ .

(٨) أمثال العوام للزجالي ، ص٨٥ .

جـ ـ خميس إبريل[١] : وهو السابق لأحد عيد الفصح ، قال المقريزي في خططه «خميس العهد ، ويعمل قبل الفصح بثلاثة أيام . . وعوام أهل مصر في وقتنا يقولون خميس العدس من أجل أن النصارى يطبخ فيه العدس المصفى ، ويقول أهل الشام خميس الأرز وخميس البيض ، ويقول أهل الأندلس خميس إبريل اسم شهر من شهورهم[٢] .

وورد في كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار في الحديث عن منارة الإسكندرية ما نصّه «ولهذه المنارة بالإسكندرية مجتمع في العام يسمّونه بخميس العدس وهو أول خميس من شهر مايه لا يتخلف في مدينة الإسكندرية عن الخروج إلى المنار في ذلك اليوم أحد ، وقد أعدوا لذلك اليوم الأطعمة والأشربة ولا بدّ في ذلك الطعام من العدس[٣] .

د ـ عيد الفصح : في الرابع والعشرين من إبريل ، يذكر مؤلف تقويم قرطبة أنه أكبر أعياد العجم[٤] .

وذكرت المصادر عيداً آخر أطلقت عليه اسم «ليلة العجوز» وأن الأندلسيين كانوا يحتفون كثيراً بهذه الليلة[٥] ، ويذكر مؤلف تقويم

(١) اختصار القدح المعلّى ، ص١٥٦ ، الحوادث والبدع للطرطوشي ، ص١٤١ .

(٢) خطط المقريزي ، ١/ ٢٦٥ ، (ط . دار صادر بالأوفست) .

(٣) كتاب الاستبصار ص ٩٨ .

(٤) تقويم قرطبة ٧٣ .

(٥) الدّر المنظم ٢٥ ، ٢٩ المعيار المعرب ١١/ ٢٩٣ .

قرطبة أنّ أوّل أيام العجوز هو السادس والعشرون من شباط ، ويقول : «أيام العجوز خمسة وقيل سبعة ثلاثة من فبرير وأربعة من مارس»[١] .

٢ ـ صور الاحتفال بهذه الأعياد وصداها في الأدب الأندلسي

لم يكن احتفال المسلمين الأندلسيين بهذه الأعياد وقفاً على عيد بعينه ، بل كان يشمل جميع الأعياد المسيحية ، ولم يكن محصوراً في فئة معينة من أبناء مسلمي الأندلس وإنما شمل مختلف طبقات الأندلس من الرجال والنساء والصغار والكبار والرعيّة والحكّام والأدباء والجواري والحرائر باستثناء حالات محدودة من الفقهاء المتشددين . وقد عجب العزفي في كتاب الدّر المنظم من «إحصاء الأندلسيين لتواريخ النصارى والاعتناء بمواقيتها ، فكثيراً ما يتساءلون عن ميلاد عيسى (على نبينا وعليه السلام) ، وعن ينير سابع ولادته ، وعن العنصرة ، ميلاد يحيى (على نبينا وعليه السلام) . . . فقد انتهى اليوم إلى العذراء في خدرها والحرة المصونة في سترها ، وأضافوا للتحفي عنها بالسؤال ، والمحافظة عليها والإقبال ، من بدع وشنع ابتدعوها ، وسنن واضحة أضاعوها . .»[٢] وأضاف العزفي إن العادة جرت عند الأندلسيين أن

---

(١) تقويم قرطبة ٤٧ .

(٢) الدّر المنظم ، ص١٩ ـ ٢٠ .

يستعدوا لهذه الأعياد ويفخموا لشأنها عاماً بعد عام «حتى رسخت في صدورهم وتصورت في عقولهم وتاقت إليها أنفسهم»[(١)].

وقد اتخذت احتفالات الأندلسيين بهذه الأعياد صوراً عدة ، لخصها العزفي بقوله «بموائد نصبوها لأبنائهم ونسائهم وصنعوها ، وتخيروا فيها أصناف الفواكه وأنواع الطرف وجمعوها ، وتهادوا فيها بالتحف التي انتخبوها ، والمدائن التي صوروا فيها الصور واخترعوها ، ونصب ذوو اليسار نصبات في الديار ، كما نصب أهل الحوانيت فنضدوها ، فقوم أباحوا أكلها لعيالهم وقوم منعوها ، وجلوها كالعروس لا تغلق دونها الأبواب ، وفي منصتها رفعوها ، وبعضهم أكل من أطرافها ، ثم باعوها . ولقد ذكر لنا غير واحد من المسافرين أن النصبة ببعض بلاد الأندلس (جبرها الله وأمنّها) يبلغ ثمنها سبعين ديناراً ، أو يزيد على السبعين ، لما فيها من قناطير السكر وأرباع الفانيذ وأنواع الفواكه من غرائر التمر وأعدال الزبيب والتين على اختلاف أنواعها وأصنافها وألوانها ، وضروب ذوات القشور من الجوز واللوز والجلوز والقسطل والبلوط والصنوبر إلى قصب السكر ورائع الأترج والنارنج والليم . وفي بعض البلاد طاجن من مالح الحيتان ينفقون فيه ثلاثين درهماً إلى نحوها ، ولقد شاهدت في بعض الأعوام سد الحوانيت ممن لا يبيع ما يحتاجون إليه ، كسوق القيسرية والعطارين وغيرها من الأسواق ، وفي

---

(١) نفسه ، ص٢٨ .

ذلك لضعفائهم من الدلالين وغيرهم من قطع المعايش وتعذر الأرزاق ، ويطلقون الصبيان من المكاتب . .»[١] .

ويقول : «وكان هذا في ينير ، ثم صنعوا نحواً منه في العنصرة وفي الميلاد . . . إذ يلقون إليهم أنه من عمل مثل هذا العمل ، لم يخل عامه من رغد العيش وسعة الرزق وبلوغ الأمل . وربما جعلوا جمارة تحت أسرتهم تفاؤلا وأمارة ، ليكونوا في عامهم ذلك أسمى من الجمارة»[٢] .

وذكر أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال الأنصاري القرطبي من جزء ألفه في هذه الظاهرة قائلاً : «فإني رأيت الجمهور اللفيف والعالم الكثيف من أهل عصرنا قد تواطأوا في إعظام شأن هذه البدع الثلاث : الميلاد وينير والمهرجان ، وهو العنصرة ، تواطؤاً فاحشاً ، والتزموا الاحتفال لها والاستعداد لدخولها التزاماً قبيحاً ، فهم يرتقبون مواقيتها ويفرحون بمجيئها . . واستسهلوا هذه البدع حتى ألفوها وعظموها ، وصارت عندهم كالسنة المتبعة ، وسكت العلماء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيها ، وتأنى السلطان في تغييرها . .»[٣] .

---

(١) الدر المنظم ، ٢٠ ـ ٢١ .

(٢) نفسه ٢١ .

(٣) نفسه ٢٣ .

وكان الناس في هذه الأعياد يتبادلون الهدايا ، حتى إن الطلبة كانوا يهدون شيوخهم[١] ، كما كانوا يذبحون الذبائح[٢] ، وكان الناس «يجتمعون ليلة قبل ينير أو ليلة بعده مع أقاربهم وأصهارهم فيأكلون الإدام والفاكهة»[٣] ، وكانوا يصنعون الصور في هذه الأعياد[٤] ، وكانت النساء في عيد العنصرة يرششن بيوتهن بالماء ويلقين في ثيابهم ورق الأكرنب ويغتسلن[٥] .

ومما يفهم من قول العزفي «ويطلقون الصبيان من المكاتب» أن الطلبة كانوا يعطلون عن الذهاب إلى المدارس ، في تلك الأعياد ، وقد ورد في اختصار القدح المعلى في الترجمة لأبي الحسن علي بن جابر الدباج الإشبيلي أن الطلبة كانوا يخرجون في هذه الأعياد في رحلات مع شيوخهم فيأكلون المجبنات ، وهي حلوى أندلسية مشهورة ، على عادة أهل إشبيلية يوم خميس إبريل ، وقد خرج الدبّاج مع طلبته برسم الفرجة وأكل المجبّنات يوم خميس إبريل على عادة أهل إشبيلية[٦] .

وورد في اختصار القدح المعلّى في الترجمة لأبي عمران موسى بن علي الطرياني (ت٦٣٩هـ) وصف المدينة التي يصنعها الأندلسيون

---

(١) نفسه ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٦ .

(٢) نفسه ٢٧ .

(٣) نفسه ٢٧ ـ ٢٨ .

(٤) نفسه ٢٩ .

(٥) نفسه ٣٠ .

(٦) اختصار القدح المعلّى ١٥٦ .

عادة في النيروز من العجين وبأصناف الألوان ، وهي كما يقول مشهورة العمل في ذلك الموسم ، وفي وصفها يقول الطرياني[١] :

مـــديـــنة مســـوَّرة ... تحـــار فـــيها السَّـــحَرة
لم تبـــنها إلا يـــدا ... عـــذراء أو مخـــدرة
بـــدت عروســـا تُجْـــتلَى ... مـــن درمـــك مزعفـــرة
ومـــا لهـــا مفـــاتح ... إلا البـــنان العشـــرة

(الدرمك : ناعم الزعفران ودقائقه) .

ووردت هذه الأبيات كذلك في وصف هذه المدينة المصنوعة من الحلوى والعجين منسوبة لابن هَمُشْك أبي عبد الله محمد بن يحيى بن أبي بكر التنملي[٢] ، وجاء بعدها :

«مدينة ميمونة الطائر ، غنية الأزهار عن السحاب الهامر ، تجلت جواريها داعية إلى الأنس ، فيا لها أوانس ليست من الإنس ، بل ما لها في الحيوان جنس ، تزخرفت قيتها من الأزهار بأصفر العقيان ، وأخضر كالزمرد وأحمر كالمرجان ، وأقامها عمود الصبح لكن لا يصحب غبشاً مذ كان ، طاعت لجلالك ودانت لبهائك وكمالك ، فخذها فألا لما تقلد من الولاية ، في أيام مولانا المنصور الراية» .

ويتضح من هذا الوصف النثري أنها كانت تصنع معها تماثيل للجواري وتزين بأزهار مختلفة الألوان ، وكل ذلك من الحلوى ،

(١) اختصار القدح المعلّى ٢٠٢ ، المغرب ١/ ٢٩٤ (مع بعض اختلاف) ، نفح الطيب ٤/ ٦٣ ، ١٣١ (مع بعض اختلاف) .

(٢) اختصار القدح المعلّى ١٠١ .

وكانت تُهدى في بعض الأحيان إلى أولي الشأن من السلاطين والأمراء والقادة.

وقد ورد وصف مدائن العجين في كتاب الذيل والتكملة[١] في معرض الترجمة لأبي العبّاس أحمد بن يحيى بن أحمد بن سعود العبدري (ت٥٩٩هـ) إذ قال فيه: «وقد كثر منه الاجتراء على الأمراء من آل عبد المؤمن، وتكرّر شكيّته عليهم، وتشنيع أحوالهم، حتى أثر ذلك عندهم واستثقلوه منه. وله في نحو ذلك أخبار جافية منها أنّ أبا يوسف المنصور قَدَّمَ بنيه وصغار إخوته وبني أعمامه وذوي قرابته ولاة في البلاد، ترشيحاً لهم وإشادة بمكانتهم لديه، وتنبيهاً لقدرهم، ووافق ذلك فصل شدّة القيظ، فأنكر ذلك أبو العباس هذا أو أنكره غيره من رؤساء الدولة فسنح له أو سئل منه الاحتيال في فسخ ذلك التقديم، فعمد إلى أزياء الملابس التي جرت عادة المترفين باستعمالها في فصل شدة القرّ كالفِرا وثياب الملف والقباطي والبرانس، فاستكثر من لباسها، وظاهر بعضها ببعض، وحضر بهذا الرياش بمجلس خواصّ الطلبة ومجتمعهم بدار الإمارة، فعجبوا من استعماله مثل تلك الشارة في ذلك الفصل، واستشعروا أن فعله ذلك لإحدى فواقره، ومقدّمة لبعض نوادره، فسألوه عن سبب مظاهرته بتلك الملابس في ذلك الفصل الذي لا يستطيع أحد استعمال مفرداتها فيه. فقال لهم: إنّما قدّرتُ أنه فصل القرّ وشدّته وأنا منه في شهر ينير (بلسان الروم وهو

(١) الذيل والتكملة، س١ ق٢ص ٥٦٥ ـ ٥٦٦.

كانون الآخر بالسريانية وهو طوبة بالقبطية). فقيل له : وما الذي حملك على هذا التقدير؟ فقال : «إني رأيتُ المدائن فرقت على الصبيان والأطفال يعبثون بها ويعيثون فيها ثم يأكلونها». يورّي عن المدائن التي عهد ببلاد المغرب والأندلس عملها في النيروز من الدقيق الحواريّ الملتوت بالزيت المحكم العجن بالماء ، المتخذة رغفاً مفاريد أو مثنيات أو مثلثات كيفما اختير عملها ، وتنقش وتصنع فيها أشكال من العجين مركّبة على البيض المصبوغ بالحمرة أو الخضرة أو بغير ذلك من الألوان بحسب المتخير لها ، ثم يقدّم الجميع بالزعفران ويطبخ في الفرن ويجمع إليه أصناف الفواكه ، ويحتفل كلّ إنسان في انتخابها وتجويد صنعتها ويتباهى في الإنفاق فيها على قدر وسعه واعتنائه بذلك ، ثم يدفع ذلك كله إلى الأصاغر إدخالاً للسرور عليهم وتوسيعاً للترفيه لأحوالهم ، وتبشيراً بخصب عامهم ، وتفاؤلاً لبسط الرزق فيه لهم ، فيبهجون ويتمكن جذلهم ويتفاخرون بمقاديرها بينهم ، ويتمادى . . . لديهم أياماً بحسب كثرتها وقلتها ، ثم يأتون عليها أكلاً وتفكّهاً بما معها من أصناف الطرف والفواكه. فكان فعلُ أبي العباس هذا سبباً في فسخ ذلك التقديم وصرف أولئك الأصاغر عن تلك الولايات في البلاد.

كما كان الأندلسيون يطبخون ليلة ينير ويوقدون النيران ، وكأنها كانت ظاهرة عامة في الأندلس ، ولذلك أورد صاحب الصلة عن

شيوخ بني قاسم بن هلال : أنهم كانوا لا توقد نار في بيوتهم ليلة ينير ولا يطبخ عندهم شيء[١] .

ويصف ابن رزين التجيبي في كتابه فضالة الخوان[٢] طعاماً خاصاً يعد في يوم النيروز يسميه «الثريدة المثومة المصنوعة في يوم النيروز» .

وبمناسبة هذه الأعياد كان علية الأندلسيين من الوزراء والأدباء وأولي الأمر يتبادلون الهدايا ، وأوردت المصادر أن صاحب شرطة الأندلس أبا بكر بن القوطية كان ليلة المهرجان يهدي الورد ومطيبات الأزهار إلى الأدباء والوزراء ، فمن ذلك أنه أهدى ثلاث وردات لأبي الوليد حبيب مؤلف كتاب «البديع في وصف الربيع» ومعها أبيات منها[٣] :

بعثتُ بأغرب الأشياء طُرّا ... وأعجبِها لمختبر ومُخْبِرْ

بورد ناعم غضٍّ نضير ... يروقك ناسماً طوراً ومُبْصِرْ

أتى في المهرجان فكان فوق الـ ... بكير غرابةً وهو المؤخَّرْ

. . . . .الخ

كما أهدى مطيّب بهار (نرجس) إلى الوزير أبي عامر بن مسلمة وكتب معه أبياتا منها[٤] :

---

(١) الصلة ١/ ١٠ ـ ١١ .

(٢) فضالة الخوان ٥٤ .

(٣) البديع ١٢٨ ؛ شعر أبي بكر بن القوطية من أعيان المائة الخامسة الهجرية ، صنعة هدى شوكة بهنام ، مجلة المورد ، المجلد الرابع عشر ، العدد الأول ، ص ١٠٠ .

(٤) البديع ١٠٢ ـ ١٠٣ ؛ شعر أبي بكر بن القوطية ، ص١١٠ .

قـل لـريحانةِ العـلى والمكـارمْ والكريمِ النجار وابنِ الأكارِمْ

قـد بعثـنا إلـيك يـا خـير ناشٍ بالدنـانير فوق محضِ الدراهمْ

دُمْـتَ لـلمهرجانِ والعيد والنيـ روزِ إلفـا مـن الحـوادثِ سالمْ

ومن ذلك أيضاً أن الوزير محمد بن عمار أهدى للمعتمد بن عباد ثوباً من صوف البحر في يوم نيروز وبعث معه هذين البيتين[١] :

لمـا رأيـتُ الـناسَ يختلفون في إهـداءِ بـابكَ جِئْـتُهُ مـن بابِـهِ

فبعثـتُ نحو الشمسِ منه لباسَها وكسوتُ متنَ البحرِ بعض ثيابِهِ

ويفهم من هذين البيتين أن الناس كانوا يتبادلون الهدايا في عيد النيروز وأن القادة والوزراء كانوا هم أيضاً يرسلون بالهدايا إلى أمرائهم في هذه المناسبة .

وفي يوم المهرجان كان الناس يلبسون البياض ويستمرون على ذلك إلى أول شهر تشرين الأول ، وتذكر المصادر أن ذلك مما سنه زرياب في المجتمع الأندلسي ، فقد ورد في كتاب نفح الطيب في سياق ذكره لما أخذه الناس عن زرياب : «ولبسه كل صنف من الثياب في زمانه الذي يليق به ، فإنه رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلعهم للملون من يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة الكائن في ست بقين من شهر يونيو الشمسي من شهورهم الرومية ،

---

(١) السحر والشعر ص١٨ .

فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسي منها ثلاثة أشهر متوالية ، ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة»[١] .

وكانت هذه الأعياد مناسبة لتوزيع السلاطين الأموال على المقربين من رعاياهم ، فقد جعل عبد الرحمن بن الحكم لزرياب في كل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار[٢] .

وفي حديثه عما يفعله الأندلسيون في هذه الأعياد يقول أبو بكر الطرطوشي (ت٥٢٥هـ) في كتابه الحوادث والبدع :

«ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على إقامة ينير بابتياع الفواكه كالعجم وإقامة العنصرة وخميس إبريل بشراء المجبنات والإسفنج* وهي من الأطعمة المبتدعة ، وخروج الرجال جميعاً أو أشتاتاً مع النساء مختلطين للتفرج ، وكذلك يفعلون في أيام العيد ويخرجون للمصلّى ، ويقمن فيه الخيم للتفرج ، لا للصلاة»[٣] .

وورد في كتاب المعيار المعرب للونشريسي إشارات كثيرة لما كان يفعله أهل الأندلس احتفالاً بهذه الأعياد ، فمن ذلك أن أهل البادية منهم كانوا يوم العنصرة ينشرون ثيابهم ويصمون الخيل قبل الصلاة[٤] .

---

(١) نفح الطيب ٣/١٢٨ ، المطرب ١٤٧ .

(٢) نفح الطيب ٣/ ١٢٥ .

* الإسفنج : عجين من السميد يقلى بالزيت (فضالة الخوان ص ٨٠ ـ ٨٢) .

(٣) كتاب الحوادث والبدع ١٤٠ ـ ١٤١ .

(٤) المعيار المعرب ١١/ ٩٢ .

ومما ورد في المعيار المعرب : «وسئل أبو الأصبغ عيسى بن محمد التميلي عن ليلة ينير التي يسمونها الناس : الميلاد ، ويجتهدون لها في الاستعداد ، ويجعلونها كأحد الأعياد ، ويتهادون بينهم صنوف الأطعمة وأنواع التحف والطرف المثوبة لوجه الصلة ، ويترك الرجال والنساء أعمالهم صبيحتها تعظيماً لليوم ، ويعدونه رأس السنة . .»[١] .

ويتضح من هذا القول أن الأندلسيّين كانوا يعطّلون أعمالهم في عيد الميلاد ، ممّا يؤكد ما أشار إليه العزفي سابقاً من تعطيل المدارس في تلك المناسبة .

ومما كان يفعله الأندلسيون في العنصرة «إجراء الخيل والمباراة»[٢] ومما يؤكد ذلك ما رواه القاضي عياض في كتابه ترتيب المدارك في حديثه عن أبي بكر يحيى بن هذيل الشاعر (ت٣٧١هـ) قال «ومن أخباره أن الناصر (الخليفة عبد الرحمن الناصر) كان قد أنذر الخطباء والشعراء بحضور خيل الحلبة في المهرجان . قال ابن هذيل : فجاءني الأمر بذلك عشي نهارها ، فخلوت بقية يومي والنصف من ليلتي لم أنظم كلمة ، فأويت إلى فراشي ، فأخذتني عيني ، فكنت أرى شخصاً في المنام يقول لي : ترقد يا أبا بكر ولم يفتح عليك؟! ثم يقول :

مشـاهد يلزمنـا حضورُهـا   للخيل حتى تنقضي أمورُها

(١) المعيار المعرب ١١/ ١٥٠ .

(٢) نفسه ١١/١٥١ .

وهببت سريعاً وقد توقد خاطري وافتتحت بهذا الابتداء ، وانثالت عليَّ القوافي ، فجئت بأرجوزة حسنة ، غدوت بها أول منشد[١] .

ويفهم من هذا النص أن العناية بهذه الأعياد بلغت حداً كبيراً عند الخلفاء والحكام بحيث كانوا يقيمون المسابقات للخيول ويدعون الشعراء والخطباء والكتاب لوصف تلك المسابقات .

ومما كانت تفعله النساء في عيد العنصرة (المهرجان) أنهن كن يزين بيوتهن «ويرششنها بالماء ، وكذلك إخراج ثيابهن إلى الندى بالليل . . . وتركهن العمل في ذلك اليوم ، وأن يجعل ورق الكرنب والخضرة (في ثيابهن) واغتسالهن بالماء ذلك اليوم»[٢] . ومما فعلوه أيضاً «بيع الملاعب المصنوعات في النيروز كالزيافات وشبهها»[٣] .

ومما كانوا يفعلونه كذلك أن يقوم أسطول المسلمين بألعاب في الماء احتفالاً بيوم المهرجان ، وقد أوردت المصادر الأندلسية قصيدة لأبي بكر محمد بن عيسى بن اللبانة الداني يمدح فيها مبشراً العامري الملقب بالناصر ويصف فيها لعب الأسطول في يوم المهرجان ، ومنها[٤] :

بشرى بيوم المهرجانِ فإنه ... يومٌ عليه من احتفائك رونقُ
طارت بناتُ الماء فيه وريشُها ... ريشُ الغرابِ وغير ذلك شَوْذَقُ

---

(١) ترتيب المدارك ٢/ ٥٥٣ .

(٢) المعيار المعرب ١١/ ١٥١ .

(٣) نفسه ٦/ ٧٠ ، فتاوى ابن رشد ٢/ ٩٤٠ «وسئل رضي الله عنه هل يحلّ عمل شيء من هذه الملاعب التي تصنع في النيروز من الزرافات والكمادين وما يشبهها؟» .

(٤) المعجب ٢٢٥ .

وعــلى الخلــيج كتيــبةٌ جــرّارةٌ مــثلُ الخلــيج كلاهمــا يــتدفّقُ
وبـنو الحـروب عـلى الجـواريٍ الـتي تجـري كمـا تجـري الجـيادُ السُبّقُ
مـلأ الكمـاةُ ظهورَهـا وبطونَهـا فأتـت كمـا يـأتي السـحابُ المُغْـدِقُ
خاضـت غديـرَ المـاء سـابحةً بـه فكأنمـا هـي في سـرابٍ أيْـنُقُ
عجـباً لهـا مـا خلـتُ قـبل عـيانها أن يحمـل الأُسْـدَ الضـواري زَوْرَقُ
هـزّت مجاديفـا إلـيك كأنهـا أهـدابُ عـين للرقيـب تحـدّقُ
وكأنهـا أقـلامُ كاتـبِ دولـةٍ في عـرض قـرطاسٍ تخـط وتمشـقُ

كما جرت العادة أن يتبادل الناس التهاني بهذه الأعياد وأن ينشد الشعراء قصائد التهاني بين يدي الملوك الذين يقيمون الاحتفالات في قصورهم ، فمن ذلك قصيدة للأديب أبي بكر عبد المعطي بن محمد ابن المعين يقول تهنئةً بنيروز(١) :

هـو الـنيروز أمّـك للـتهاني وللبُشـرى بمقتبـل الـزمـانِ
فدمـتَ مهـنّأً في كـل حـينٍ عـزيـز الجـار مـألـوف المغـانـي

ومن ذلك أيضاً أبيات لابن شهيد يهنىء فيها الخليفة المستعين بالنيروز(٢) :

وأتـاك بالـنيروز شـوقٌ حافـرٌ وتطلُّـع للـزوْر غـبَّ تطلّـعِ
وافـاك في زمـنٍ عجيـبٍ مونـقٍ وأتـاك في زهـرٍ كـريم ممـتع

(١) مطمح الأنفس ٣٨٤ ـ ٣٨٥ .
(٢) البديع للحميري ٣٥ ـ ٣٦ .

ومن ذلك أيضاً قصيدة مطوّلة لأبي بكر محمد بن عيسى بن اللبانة الداني يمدح فيها ناصر الدولة ويصف النيروز والملاهي التي حضرت بين يديه ، مطلعها(١) :

عاوده الشوق وكان استراحْ ... وانبرت الطيرُ تغنّي فناحْ

ومنها في وصف النيروز :

يا كوكب النيروز في بهجة ... أسنى من البدر المنير اللَّياحْ

جاءت عطاياك تهادى به ... تهاديَ الغير غداة اقتراح

لو أن لي قوة عهد الصبا ... لم أترك النيروزَ دون اصطباح

يوم رقيق ناثر ناظم ... كافوره فوق الربى والبطاح

تلعب فيه كلُّ مياسةٍ ... مَيْسَ غصونٍ تحت روح الرواح

في ملتوى الأرقم في جلده ... في خيلاء الخيل عند المراح

إن قعدت قلت ربى في ثرى ... وإن مشت قلت مهى في مراح

غيداءُ جيداءُ لها معطفٌ ... يرفل من ديباجه في اتشاح

إنسيةٌ وحشيةٌ رُكّبَتْ ... من صورة الجِدِّ وشكل المزاح

ساكنةٌ في جوفها ناطق ... ينطق عنها بمعانٍ فِصاح

كأنما حِلْيتها ألْسُنٌ ... تملأ سمع الدهر فيك امتداح

يخدمها كلّ كميّ له ... وجهٌ حييٌ وفؤادٌ وقاح

يجرح روح الروع صمصامه ... وحدّه يجرحه الالتماح

(١) شعر ابن اللبانة ٢٩ ـ ٣٢ .

مــــرهفه نـــــار وفضفاضـــــه ... مـاء وبـين الحالـتين اصـطلاح

ومن ذلك ما قاله الشاعر أبو محمد بن صارة الشنتريني (ت ٥١٧هـ) «يمدح الأمير أبا بكر بن إبراهيم (المرابطي) في نوروز سنة تسع وتسعين وأربعمائة[١] :

طـــاف بـــأكواس مســـرّاته ... مـــا بـــين ريحـــان مـــبرّاته

. . . .

وأشـرف الـنوروزُ فاستشـرفت ... لِـيَ الأمــاني نحــو عاداتــه . .

في قصيدة طويلة فيها وصف لمجلس أبي بكر وللثلوج والأمطار التي كانت تهطل في تلك الليلة .

وكان ربّما تصادف عيدان إسلامي ومسيحيّ في وقت واحد ، فكان الشعراء يهنئون سلاطينهم بالعيدين معاً ، فمن ذلك ما قاله أبو عامر ابن شهيد يهنيء أبا عامر بن المظفر بن المنصور بن أبي عامر بعيد الأضحى وعيد الفصح :

جُمِعـتْ بطاعـةِ حبّك الأضدادُ ... وتـــألّف الأفصــاح والأعـــيادُ

كتـب القضـاءُ بأن جَدَّكَ صاعدٌ ... والصـبح رقٌّ والظـلامُ مِدادُ[٢]

ومن ذلك أيضاً أبيات لابن درّاج القسطلي يهنيء فيها المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر بعيد المهرجان وعيد الفطر منها :

---

(١) قلائد العقيان ٣/ ٨٢٠ ـ ٨٢٣ .

(٢) الذخيرة ق١ م١ ص٣٠٣ ، المختار من شعر شعراء الأندلس ٦١ ـ ٦٢ .

كلُّ الكواكبِ ما طلعتَ سعودُ وإذا سلمتَ فكلُّ يومٍ عيدُ
وافاك يومُ المهرجان وبعده للفطر يومٌ بالسرور جديدُ
فضلٌ يعاود كلَّ عامٍ والنّدى في كل حين من يديْك يعود[١]

ولعليّ بن أبي الحسين من أبيات يذكر المهرجان والصيام[٢] :

قد دنا الصومُ في صفوفٍ حسانٍ وبدا المهرجان آخر صفٍّ
ولشعبان بالشمول بقايا كبقايا الحنّاء في رسم كفٍّ

ومن هؤلاء الشاعر عبد الرحمن بن عثمان الأصم من شعراء بني أمية أيام عبد الرحمن الناصر حيث يقول[٣] :

أرى المهرجان قد استبشرا غداة بكى المزن واستعبرا
وسربلت الأرض أفوافها وجللت السندسَ الأخضرا
وهز الرياحُ صنابيرها فضوّعت المسكَ والعنبرا
تهادى به الناس ألطافهم وسامى المقلُّ به المكثرا
ولو كنت أهدي إلى موئلي عقائل ما دب فوق الثرى
وقارنتُ أيسر آلائه بها لاحتقرتُ له الأكثرا
بعثت بشكر حكى سُكّرا وإن خالف المنظرُ المَخْبَرا
بشين كسين بلا عجمة وكافٍ ككاف وراءٍ كرا[٤]

---

(١) ديوان ابن دراج ٢٦ .

(٢) التشبيهات للكتاني ٢٨٧ .

(٣) جذوة المقتبس ٢٧٦ ، مطمح الأنفس ٢١٤ ، ووردت الأبيات في نفح الطيب ٥٤٧/٣ منسوبة للوزير حسان بن مالك بن أبي عبدة .

(٤) يعني (شكر) .

ويتضح من هذه الأبيات أن الأندلسيين كافة فقراءهم وأغنياءهم كانوا يحرصون على تبادل الألطاف والهدايا بمناسبة عيد المهرجان.

ومن القصائد الطريفة التي تدل على مشاركة طبقات الأندلس كافة في الاحتفال بهذه الأعياد أغنيائهم وفقرائهم قصيدة للشاعر أبي عبد الله محمد بن مسعود يحكي ما وقع له مع زوجته ليلة النيروز فيقول :

أبا القاسم اسمع من عُبَيْدِكَ طُرْفَةً ... أبثكها فأذن لها تلج الأذنا
دنت ليلة النيروز منا ولم تكن ... لترضى لنا فيها من العيش بالأدنى
وقالت خجولي : سر إلى السوق واحتفلْ ... ولا تُبْقِ فيها من جراديقها منّا

(الجراديق : الفطائر).

وقِفْ بابن نصر واحشُوَنْ ثم قفّة ... من اطراف ما يحويه كي تُذْهِبَ الشَجْنا
وجُزْ بالفتى الجزار واختره هابلا ... بقدّ ابن فتويّ أبي بكر المضنى
ولا بدّ من أترجةٍ صعترية ... وإياك أن تنسى التوابل والحنّا
فقلت : وأين النقد يا ابنة عزّةٍ ... لقد جئتها بلقاء متنةً نَتْنا
فقالت : أديبٌ شاعرٌ متفننٌ ... حوى من حظوظ الظرف في زعمه الأسنى
بلا قطعة؟! هذي لعمرك هجنةٌ ... فسِرْ راشداً عنا فما لك من معنى
لئن لم تجيء بالتين ألبستَ شيرة ... وبالزيت أضحى سجنك البيت والدنا
فلا ينكسر بالله جاهي عندها ... وخذ في الذي أحتاج شعريَ ذا رهنا[1]

---

(١) الذخيرة لابن بسام ق١ م١ ص٥٦١ ـ ٥٦٢.

وتدلّ هذه المقطوعة على أن جميع شرائح المجتمع الأندلسي بما فيها الفقراء والمعوزون كانوا يبذلون وسعهم لتوفير احتياجات الاحتفال بتلك الأعياد المسيحية حتى لو دعاهم ذلك إلى السؤال والاستجداء :

وقد تجلت ظاهرة تهنئة السلاطين وإنشادهم المدائح بمناسبة عيد النيروز بوضوح في عصر بني الأحمر (٦٣٥ ـ ٨٩٧هـ) ، ومن أبرز الشواهد على ذلك قصائد للسان الدين بن الخطيب ، منها قصيدة أنشدها بين يدي أبي الحجاج يوسف الأول بن نصر «في النيروز الموافق لعام ستة وثلاثين (وسبعمائة)» مطلعها(١) :

قسماً بالليل وما وسعا وأيات البدر إذا اتسقا

ومنها :

هذا النيروز أتاك بما تهواه وبالبشرى سبقا... إلخ

وقصيدة أخرى أنشدها بين يديه «في النيروز الموافق لعام ٧٣٧هـ» مطلعها(٢) :

زمانك أفراح لدينا وأعيادُ فعيدٌ ونيروزٌ سعيدٌ وميلادُ

ومن أبياتها :

ويهنيك نيروزٌ سعيدٌ قد انقضى أتتك على آثاره منه أعداد

أتاك على علم بجودك في الورى فأمَّلَ من جدواك ما هو يعتاد

وما هو إلا رائد لبشائر فلا زال يحدوها إليك ويعتاد

---

(١) ديوانه ٦٣١ ـ ٦٣٤ .

(٢) نفسه ٤٠٥ ـ ٤٠٧ .

وقصيدة أخرى أنشدها بين يديه «في النيروز الموافق لعام تسعة وثلاثين وسبعمائة»[١] مطلعها :

ما ضرَّ لو سلَّم أو ودَّعا   من أودع القلب الذي أودعا

من أبياتها :

فاستقبلِ الأيامَ وضّاحةً   واجنِ جنى النصر فقد أينعا
واهنأ بنيروزٍ مسراتُهُ   قد أصبحت أبوابها شُرَّعا

وقصيدة أنشدها بين يديه «في النيروز الموافق لعام أربعين وسبعمائة» مطلعها[٢] :

أشارت غداة البين من خلل السجف   بناظرتَيْ ريمٍ وسالفتَيْ خشف

ومن أبياتها :

أمولاي زارتك القوافي كأنها   هدايا تهادتها القيانُ إلى الزفّ
عليها عقودٌ من ثنائك نظّمت   مناسبة التأليف محكمة الرصف
أتاك بها النيروز معترفاً بما   لملكك فيه من نوال ومن عرف
فَهُنِّيتَهُ والدهر طوعك والمنى   توافي بما تهواه ضعفاً على ضعف

إلخ .

ونظراً لأهمية الأعياد المسيحية عند الأندلسيين ، فإننا نجد من الشعراء من يحزن كثيراً إذا صادفت هذه الأعياد وهو في السجن ،

---

(١) نفسه ٦١٣ ـ ٦١٥

(٢) نفسه ٦٢٤ ـ ٦٢٨ .

وهذا ما وقع للشاعر أبي الأصبغ عبد العزيز بن الخطيب ، وله من قوله في السجن في يوم مهرجان[١] :

رويدك ايها الشوق المذكّى لنا وصبابتي بالمهرجان
لقد أذكرت مني غير ناس وهجت لِيَ الصبابة غيرَ وانِ
أيوم المهرجان اعذر فحالي تراها في البلاد كما تراني
ولو لم يثنني طين وقيد لرحت وقيل لي : قصب الرهان

وقد تجلى الاهتمام بهذه الأعياد في أعمال الأدباء الأندلسيين من شعراء ووشاحين وزجالين وكتاب ، فوصفوها وتغنوا بها بما لا يقل عن اهتمامهم بأعياد المسلمين .

ولدى مطالعة أعمال الوشاحين الأندلسيين يجد الدارس إشارات كثيرة إلى عيد النيروز وعيد المهرجان أو العنصرة ، فمن ذلك قول الوشاح أبي العباس الأعمى التطيلي في خرجة إحدى موشحاته ؛ مازجاً عامية أهل الأندلس بألفاظ أعجمية[٢] :

رب مخضوب البنان قد غدت للحسن كنها
غادة ملء العيان تشرق الآفاق منها
زرتُها في المهرجان فَشَدَتْ عني وعنها :
ألب ديه اشت ديه دي ذا العنصر حقّا

(١) بغية الملتمس ٣٨٤ ، جذوة المقتبس ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

(٢) عدة الجليس ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧ .

بشـــتري مـــو المدبـــج   ونشـــق الـــرمح شـــقا

ومعنى هذه الخرجة : فجر هذا اليوم يوم العنصرة .

نشتري المدبج كثيرا ونشق الرمح شقا

كما ورد في ديوان ابن قزمان إشارات كثيرة إلى هذه الأعياد أهمها زجل طويل يصف الحلوى والمعجنات والتماثيل والنصبات التي تعد في عيد يناير ، ومن هذا الزجل[١] :

الحلـــون يعجـــن   والغـــزلان تـــباع

يفـــرح لليـــنير   مـــن مـــاعُ قطـــاع

لقـــد ذا النصـــبات   أشـــكالا مـــلاح

وفـــيه بـــالله   للعـــين انشـــراح

ومـــن لـــسْ مـــاعُ   أولاد اســـــــتراح

إلا مـــن يـــدري   فالحـــال اتســـاع

***

ترتيـــب الأثمـــار   هُـــ شـــيّاً غريـــب

اللـــوز والقســـطل   والـــتمر العجيـــب

والجـــوز والـــبلوط   والـــتين والزبيـــب

تشـــتيتاً مـــنظوم   تفـــريق اجـــتماع

***

(١) ديوان ابن قزمان ٤٦٤ ـ ٤٦٦ .

جلـوز عـين الـثور[١]	شـــيئا مـــلهوي
يـــنقر لـــك فالـــباب	نَقْـــراً مســـتوي
يصـــدع راســـك	فِـــذاكَ الـــدوي
ورزق الجلـــــوز	في ذاك الصـــــداع

***

كـــأن المـــيدا*	دار فـــيها زوْاج
والحلـــون فـــيها	عـــروس بـــتاج
والـــتين والـــبلوط	الصـــوف والدبـــاج
نقـــيم الألـــوان	مقـــام الصـــناع[٢]

***

والترنـــج أحـــباب	إذا اتعدلـــــوا
واللـــيم[٣] دفافـــات	إذا ولولـــــوا
وإن كـــان ثـــم دوم	أو قصـــبا حلـــو
فَلَـــسْ لُ تشـــبيه	إلا بالشـــــماع

***

اتحكـــم بـــالله	ذهـــني وانطـــبع

---

(١) القراسيا .

* المائدة .

(٢) الوليمة .

(٣) الليمون الحلو .

وســـــقت الأســـــحار وســـــقت الـــــبدع
ولا شـــــــك أنّ شــــيّاً مخــــــترع
فانظـــــر مـــــا أحـــــلى هـــــذا الاخــــتراع

. . . إلخ .

ويقول في زجل آخر[١] :

إن جـــاني ينـــيْر وجـــاني الاختـــيار
لـــسْ بُـــدّ انْ نلـــبس ثـــيابي الكـــبار
ونعمـــل دعـــوى ونـــنذر كـــلّ جـــار
وحســـبك يـــنير ونعمـــل مـــنٌ عـــيد

وكان لهذه الأعياد كذلك انعكاس في أمثال العوامّ في الأندلس ، ومن ذلك قولهم : «حتى تكون العنصر فينير»[٢] وهو يقال لما لا يكون أبداً .

وقولهم : «كفزها بحل عنصر»[٣] إذ كانت العادة في العنصرة عمل شعلات نارية يقفزها الناس .

وقولهم : «الكبش المصوف ما يكفز العنصرة»[٤] أي أن الكبش الذي عليه الصوف لا يقفز فوق شعلة العنصرة لأنه إذا قفز فوقها احترق .

---

(١) ديوان ابن قزمان ٢٨٤ .

(٢) أمثال العوام للزجالي ١٩٥ .

(٣) نفسه ٢٦٧ .

(٤) نفسه ص ٨٥ .

٣ ـ من أسباب احتفال المسلمين بأعياد المسيحيين

يلاحظ من خلال الأخبار الواردة عن احتفالات المسلمين بأعياد المسيحيين في الأندلس أن هذه الظاهرة كانت سائدة هنالك في زمن متقدم منذ أيام أمراء بني أمية في الأندلس في منتصف القرن الثاني الهجري ، وأنها استمرت حتى آخر عصور الحكم الإسلامي للأندلس أيام بني الأحمر ، وما من شك أن التمازج الذي حدث بين المسلمين والمسيحيين إبان الحكم الإسلامي للأندلس من خلال الحروب وما نجم عنها من سبي متبادل واختلاط مباشر ومن خلال الجواري ومن خلال التجارة المتبادلة في حالات السلم ، ومن خلال التزاوج ، قد أسهم ذلك كله في انتشار هذه الظاهرة. كما لاقت هذه الظاهرة استعدادا وقبولاً كبيرين لدى الأندلسيين بسبب ميلهم الواضح إلى الترف واللهو وحب الاستمتاع بالحياة.

وقد أشارت بعض المصادر إلى أسباب انتشار هذه الظاهرة وبخاصة كتب الفقه التي التفتت إلى كثير من الظواهر الاجتماعية لتتحدث عن حكم الشرع فيها ، وقد أشار العزفي إلى ذلك بقوله[١] : «وأرى أن ما جر على أهل الأندلس هذا إلا جوار النصارى ، ومخالطتهم لتجارهم ومكاشفتهم عند الكينونة في إسارهم». ويقول أيضاً[٢] : «إن من أعظم أسباب هذه البدعة وأقوى دواعيها مطاوعة الرجال للنساء على الاستعداد لها والتفخيم لشأنها وانقيادهم لهن في ذلك عاماً بعد عام

---

(١) الدر المنظم ٢١ .

(٢) نفسه ٢٨ .

حتى رسخت في صدورهم وتصورت في عقولهم وتاقت إليها أنفسهم» .

ولا شك أن كثرة تزاوج المسلمين من الإسبانيات وغيرهن من الرقيق الأبيض منذ أيام فتح الأندلس وكثرة اتخاذهم للجواري ، قد جعل في كثير من بيوت الأندلس من يحتفل بالأعياد المسيحية ، ثم انتقلت هذه الظاهرة من الأمهات إلى أبنائهن من المولدين ، حتى شاعت في أرض الأندلس كافة . وإذا ما وقفنا على مدى حرص الأندلسيين من مختلف طبقاتهم الاجتماعية على استرضاء نسائهم وجواريهم لأدركنا مدى سهولة تفشي هذه الظاهرة .

ومن أسباب ذلك أن المسلمين حكموا جزيرة واسعة كانت الغالبية العظمى لأهلها تدين بالنصرانية ، وأن منهم من أسلم ومنهم من بقي على دين أجداده ، وكان الفاتحون في بادىء الأمر قلة بالقياس إلى عدد السكان الأصليين ، فلم يعمل المسلمون على حرمان هؤلاء السكان من ممارسة عباداتهم وطقوسهم وثقافاتهم ، لأسباب شتى منها أن الدين الإسلامي لا يلزم أحدا ممن بقي على دينه على ترك عاداته وعباداته ، ومنها أن الحكام الجدد للأندلس حرصوا على تأليف قلوب أهل البلاد المفتوحة سواء من أسلم منهم أو من بقي على دينه ، وحرصوا على أن لا يبدو الحكم الإسلامي الجديد ثقيل الوطأة على حياتهم ومسالكهم وضمائرهم ، حتى يشعروا بالأمن والطمأنينة والمساواة والعدل .

ولا ننسى أن الأندلس كانت أقرب بلاد المسلمين إلى بلاد النصارى جواراً وأكثرها تداخلاً وتعاملاً في حالتي الحرب والسلم.

ولا ننسى الطبيعة المتسامحة لأهل الأندلس التي سمحت بتفشي هذه الظاهرة حتى غدت هذه الأعياد أعيادا أندلسية تضاف إلى أعياد المسلمين كالفطر والأضحى وعاشوراء وعيد المولد النبوي وغيرها. وكانت مشاركة الحكام والسلاطين والأمراء والقادة والشعراء والأدباء والوزراء في الاحتفال بهذه الأعياد بالإضافة إلى تعطيل المدارس والأعمال في هذه الأعياد دليلاً على اتخاذها طابعاً رسمياً وشعبياً وترسيخاً لها في المجتمع الأندلسي، كما أن تغاضي القضاة والفقهاء عنها ـ إلا في ما ندر أو إذا سئلوا عن حكمها الشرعي ـ دليل آخر على التسليم بها. ويدل على موقف السلاطين وموقف الفقهاء منها قول العزفي «وسكت العلماء ـ رضي الله عنهم ـ عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيها، وتأنّى السلطان في تغييرها»[١]. ولقد اختار المنصور محمد بن أبي عامر ليلة نيروز العام ٣٦٧هـ للدخول بأسماء بنت غالب مولى الناصر وكان كما يقول صاحب الذخيرة «أعظم ليلة عرس بالأندلس»[٢].

ولم تخل ظاهرة الاحتفال بالأعياد المسيحية من أبعاد سياسية منها الحرص على ولاء نصارى الأندلس للحكم الإسلامي القائم في الأندلس آنذاك من خلال مشاركتهم في أعيادهم والسماح لهم

(١) الدر المنظم ٢٣.

(٢) الذخيرة ٧/ ٦٥.

بممارسة عاداتهم والاحتفال بأعيادهم ، وبخاصة أن المولدين قد قاموا بعدة ثورات ضد الحكم الأموي في الأندلس . ومنها أيضاً التقرب من الدول المسيحية المجاورة التي كانت على حرب دائمة مع الأندلسيين .

ولعل من أسباب احتفاء الأندلسيين بأعياد المسيحيين في الأندلس أيضاً أن ذلك يحقق لهم بعض ما كانوا يتطلعون إليه من تمييز للشخصية الأندلسية عن الشخصية المشرقية وبخاصة أيام حكم بني أمية في الأندلس الذين كانوا على خلاف مع بني العباس في المشرق .

خاتمة المبحث

إن الصورة التي ترسمها احتفالات الأندلسيين بأعياد الميلاد والعنصرة (المهرجان) وخميس إبريل وليلة العجوز وسواها من أعياد المسيحيين ، تجعل المجتمع الأندلسي مجتمعاً حراً منفتحاً يحترم الثقافات الفرعية في داخله ويجعل منها عنصراً مهماً وفاعلاً من عناصر نسيجه الثقافي ، ويؤكد على انحيازه إلى الأندلسيين مهما كانت جذورهم ومعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم وثقافاتهم ، كما أن هذه الاحتفالات تصور المجتمع الأندلسي مجتمعاً متماسكاً متسامحاً يعشق الحياة والمتعة والترف .

وتكشف هذه الاحتفالات عن انخراط المجتمع الأندلسي على اختلاف شرائحه وطبقاته في مشاركة المسيحيين بهذه الأعياد ، حتى غدت هذه الأعياد في الأندلس ليست أعياداً مسيحية بل أعياداً أندلسية ، فالنساء يقمن بإعداد الحلوى والأطعمة ويعطلن أعمالهن ، والتجار يقومون بصناعة مدن من عجين الحلوى مزينة بالتماثيل والألوان ، والباعة يقومون بعرض الحلوى على أنواعها ، والأغنياء يعدون نصبات من الفواكه والحلوى والمكسرات ، وطلبة المدارس والكتاتيب يتحررون من الذهاب إلى كتاتيبهم ، وشيوخ العلم يخرجون مع طلبتهم في رحلات يتناولون فيها المجبنات ، والولاة ينظمون سباقات للخيول ، وقادة الأسطول يقيمون عروضاً للسفن ،

والسلاطين يفتحون أبوابهم لتلقي التهاني ، والشعراء ينشدون قصائد التهنئة بين يدي السلاطين والأمراء ، والناس يتبادلون التحف والهدايا والتهنئات . . إلى آخر ذلك من صور الاحتفال بهذه الأعياد . أما الفقهاء فيغضون الطرف ما لم يتوجه إليهم أحد بالسؤال عن حكم ذلك في الشرع .

إنه إجماع بين الأندلسيين كافة على أن تكون لهم أعياد أو مناسبات مشتركة يجتمعون حولها ويعبرون فيها عن تآلفهم وتماسكهم ، ويقدمون من خلالها صورة مضيئة للشخصية الأندلسية ونموذجاً فريداً للمجتمعات ذات التنوع الثقافي والعرقي .

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى، أبو عبدالله محمد بن خليل، (وهو مختصر لكتاب القدح المعلى لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي ت٦٨٥هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠.

٢ ـ كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، لمؤلف من القرن السادس الهجري.

٣ ـ أمثال العوام في الأندلس، الزجّالي، أبو يحيى عبيد الله ابن أحمد القرطبي، حققها وشرحها محمد بن شريفة، مطبعة محمد الخامس، فاس، ١٩٧١.

٤ ـ البديع في وصف الربيع، الحميري، أبو الوليد إسماعيل بن عامر، نشره هنري بيريس، الرباط، ١٩٤٠.

٥ ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت٥٩٩هـ)، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.

٦ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض (ت٥٤٤هـ)، تحقيق الدكتور أحمد بكير

محمود ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ودار مكتبة الفكر ، طرابلس ، ليبيا .

٧ ـ التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، الكتاني ، أبو عبدالله محمد (ت٤٢٠هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٦ .

٨ ـ تقويم قرطبة ، عريب بن سعد ، تحقيق رنهارت دوزي ، مطبعة بريل ، لايدن ، ١٩٦١ .

٩ ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، الحميدي ، أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الأزدي (ت٤٨٨هـ) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، مصر ، ١٩٦٦ .

١٠ ـ كتاب الحوادث والبدع ، الطرطوشي ، أبو بكر محمد بن الوليد (ت٥٢٥هـ) ، تحقيق محمد الطالبي ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، تونس ، ١٩٥٩ .

١١ ـ الدرّ المنظم في مولد النبي المعظم ، العزفي ، مجلة الأندلس ، عدد ٣٤ ، سنة ١٩٦٩ ، ص١ ـ ٥٣ (تحقيق ودراسة فرناندو دي لا جرانخا) .

١٢ ـ ديوان ابن دراج القسطلي ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، ط١ ، دمشق ، ١٩٦١ .

١٣ ـ ديوان ابن قزمان ، نصاً ولغةً وعروضاً ، ف . كورينطي ، المعهد الإسباني العربي للثقافة ، مدريد ، ١٩٨٠ .

١٤ ـ ديوان الصيّب والجهام والماضي والكهام ، لسان الدين بن الخطيب ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد الشريف قاهر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٧٣ .
١٥ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنتريني ، أبو الحسن علي (ت ٥٤٢هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ .
١٦ ـ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، ابن عبد الملك المراكشي ، أبو عبدالله محمد بن محمد ، السفر الأول ، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ، دار الثقافة ، بيروت .
١٧ ـ كتاب السحر والشعر ، ابن الخطيب ، لسان الدين ، حققه وترجمه إلى الإسبانية كونتيننتي فيرير ، المعهد الإسباني العربي للثقافة ، مدريد ، ١٩٨١ .
١٨ ـ شعر ابن اللبانة الداني ، جمع وتحقيق الدكتور محمد مجيد السعيد ، منشورات جامعة البصرة ، ١٩٧٧ .
١٩ ـ شعر أبي بكر بن القوطية من أعيان المائة الخامسة الهجرية ، صنعة هدى شوكة بهنام ، مجلة المورد ، المجلد الرابع عشر ، ربيع ١٩٨٥ ، العدد الأول (ص٨٥ ـ ١١٤) .
٢٠ ـ الصلة ، ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، مصر ، ١٩٦٦ .
٢١ ـ عدة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس ، علي بن بشري الأغرناطي ، عني بتصحيحه ألن جونز ، مطبعة مركز الحسابات

لجامعة أوكسفورد ، تولى طبعه أمناء سلسلة جب التذكارية ، ١٩٩٢ .

٢٢ ـ فتاوى ابن رشد ، ابن رشد ، أبو الوليد محمد بن أحمد ابن أحمد بن رشد المالكي (ت٥٢٠هـ) ، تقديم وتحقيق الدكتور المختار بن الطاهر التليلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٧ .

٢٣ ـ فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان ، ابن رزين التجيبي ، حققه وقدم له محمد بن شقرون ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٤ .

٢٤ ـ قلائد العقيان ومحاسن الأعيان ، الفتح بن خاقان ، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي (ت٥٢٩هـ) ، حققه الدكتور حسين يوسف خريوش ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ، ط١ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

٢٥ ـ المختار من شعر شعراء الأندلس ، ابن الصيرفي (ت٥٤٣هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الرزاق حسين ، دار البشير ، عمان ، ط١ ، ١٩٨٥ .

٢٦ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب ، ابن دحية ، ذو النسبين أبو الخطاب عمر بن حسن (ت٦٣٣هـ) ، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد الحميد والدكتور أحمد أحمد بدوي ، دار العلم للجميع ، بيروت ، ١٩٥٥ .

٢٧ ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، الفتح بن خاقان ، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي (ت٥٢٩هـ) ، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة ، دار عمار ، عمّان ، ومؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣ .

٢٨ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشي ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ط٧ ، ١٩٧٨ .

٢٩ ـ المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ، الونشريسي ، أحمد بن يحيى (ت٩١٤ هـ) ، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١ .

٣٠ ـ المغرب في حلى المغرب ، ابن سعيد المغربي ، أبو الحسن علي بن موسى (ت٦٨٥هـ) ، حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط٢ ، ١٩٦٤م .

٣١ ـ المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، ابن حيان القرطبي (ت٤٦٩ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٩م .

٣٢ ـ المقتبس (الجزء الخامس) ، نشره ب . شالميتا ، ف . كورينطي ، م . صبح ، المعهد الإسباني العربي للثقافة ، مدريد ، وكلية الآداب بالرباط ، ١٩٧٩م .

٣٣ ـ المقتبس (عهد الأمير عبد الله بن محمد) ، تحقيق وشرح وتعليق الدكتور إسماعيل العربي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، المغرب ، ١٩٩٠م .

٣٤ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، المقّري ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت١٠٤١هـ) ، حققه الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

35. Fiestas Cristianas en al-Andalus (Materiales para su estudio) l: Al-durr al-Munazzam de alAzfai, Fernando de la Granja, en Al-Andalus, vol. 34, (1960), pp. 1_53.

36. Fiestas Cristianas en al-Andalus (Materiales para su estudio) ll: Textos de Turtusi, el Cadi Iyad Y Wansarisi, Fernando de la Granja, Al-Andalus, Vol. 35, 1970. pp. 119-142.

المبحث الثالث

عناية الأندلسيين بالتأريخ المسيحي

عناية الأندلسيين بالتأريخ المسيحي

مقدمة :

تتناول هذه الدراسة جانباً من جوانب التفاعل الثقافي بين المسلمين والمسيحيين على أرض الأندلس إبّان الحكم الإسلامي لها الذي امتد من سنة ٩٢هـ إلى سنة ٨٩٧هـ. ويتمثل هذا الجانب بتأثُّر الكتّاب والمؤلّفين الأندلسيّين بالتأريخ المسيحي الذي كان سائداً في الأندلس قبل الفتح الإسلامي مثلما كان متبعاً في الدول المسيحية المجاورة للأندلس. فقد عني المؤلفون الأندلسيون في بعض مؤلفاتهم بإثبات التاريخ الميلادي إلى جانب التاريخ الهجري ، كما عنوا باستخدام التقويم الشمسي وأسماء الشهور الرومية مقروناً بالتقويم القمري في معظم الأحيان. وقد تجلى استخدام الأندلسيين للتأريخ والتقويم المسيحيين في مظاهر شتى وفي حالات محددة سوف نتحدث عنها بالتفصيل في هذه الدراسة. ولم يقف اهتمام الأندلسيين بالتقويم الشمسي عند حد المؤلفات التاريخية بل تعداها إلى مؤلفاتهم في الفلاحة والأغذية والطب والرحلات وغيرها. وستعنى هذه الدراسة ببيان الأسباب المؤدية إلى كل حالة من هذه الحالات ، وستعنى كذلك ببيان ما درج عليه الأندلسيون في تأريخهم للأحداث التي وقعت قبل الهجرة النبوية.

تمهيد

التأريخ في اللغة : تعريف الوقت[١] . وفي الاصطلاح : تعيين وقت لينسب إليه زمان مطلقاً سواءً كان قد مضى أو كان حاضراً أو سيأتي . وقيل : تعريف الوقت بإسناده إلى أول حدوث أمر شائع كظهور ملّة أو وقوع حادثة هائلة من طوفان أو زلزلة عظيمة ونحوهما من الآيات السماوية والعلامات الأرضية . وقيل : التأريخ مدة معلومة بين حدوث أمر ظاهر وبين أوقات حوادث أُخَر[٢] .

وقد تناولت كثير من المصادر موضوع مبدأ التأريخ قبل الهجرة النبوية ، وذكرت أن مما أرّخ به الناس :

١ ـ هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض[٣] .

---

(١) لسان العرب : أرخ .

(٢) ورد تعريف التأريخ في مصادر مختلفة كثيرة منها : الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ للسخاوي ص ٦ ـ ٧ ، والمختصر في علم التاريخ ، الكافيجي (منشور ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين/ فرانز روزنثال ، ترجمه الدكتور صالح أحمد العلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٣) ص٣٢٦ .

(٣) الوافي بالوفيات للصفدي ١/ ١٠ ، الإعلان بالتوبيخ للسخاوي ٨٢ ، الشماريخ في علم التاريخ للسيوطي ١٥ ، محاضرة الأبرار لابن عربي ١/ ١١٩ .

٢ ـ الطوفان زمن سيدنا نوح عليه السلام[١] .

٣ ـ نار سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام[٢] .

٤ ـ مبعث سيدنا يوسف عليه السلام ، ثم خروج سيدنا موسى عليه السلام من مصر ثم زمان داود عليه السلام ثم زمان سليمان عليه السلام ثم زمان عيسى ابن مريم عليه السلام[٣] .

٥ ـ بناء البيت (الكعبة) أرّخ به بنو إسماعيل[٤] .

٦ ـ وأرّخ بنو إسماعيل بعد ذلك بموت كعب بن لؤي[٥] .

٧ ـ وكان سائر العرب يؤرّخون بأيامهم المذكورة كيوم جبلة والكلاب الثاني[٦] . كما أرّخوا بأحداث كثيرة أخرى تختصّ بكل قبيلة منهم .

٨ ـ ثم أرّخو بعام الفيل وهو العام الذي ولد فيه سيّدنا محمد ﷺ[٧] . وأوردت المصادر أحداثاً كثيرة أخرى أرّخ بها الناس[٨] .

---

(١) الوافي بالوفيات ١/ ١٠ ، الإعلان بالتوبيخ ٨٢ ، الشماريخ ١٥ ، محاضرة الأبرار ١١٩/١.

(٢) الإعلان بالتوبيخ ٨٢ ، الشماريخ ١٦ ، محاضرة الأبرار ١/ ١١٩ .

(٣) المصادر السابقة .

(٤) الإعلان بالتوبيخ ٨٣ ، الشماريخ ١٦ ، محاضرة الأبرار ١/ ١١٩ .

(٥) المصادر السابقة .

(٦) الشماريخ ١٧ .

(٧) الشماريخ ١٧ ، الإعلان بالتوبيخ ٨٠ ، الوافي بالوفيات ١/ ١٠ ، محاضرة الأبرار ١/ ١١٩ .

(٨) انظر محاضرة الأبرار ١/ ١١٩ ـ ١٢٠ .

ولما ظهر الإسلام حرص المسلمون على اتخاذ تأريخ خاص بهم ، ووردت روايات كثيرة عن قصة اتخاذ التأريخ الهجري ، تجمع كلها على أن الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هو الذي أمر باتخاذ التأريخ بالهجرة النبوية ، ومن هذه الروايات : «كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر أنه تأتينا من قِبَلِكَ كتبٌ ليس لها تاريخ فأرّخْ. فاستشار عمر في ذلك ، فقال بعضهم : أرّخ بمبعث النبي ﷺ. وقال بعضهم : بوفاته. فقال عمر : لا بل نؤرخ بمهاجره فإن مهاجره فرق بين الحق والباطل. فأرخ به»[١] .

وقيل : أول من أرخ التاريخ يعلى بن أمية حيث كان باليمن ، وذلك أنه كتب إلى عمر كتاباً من اليمن مؤرخاً فاستحسنه عمر فشرع في التأريخ[٢].

وأما سبب اختياره الهجرة النبوية دون مولده عليه السلام أو مبعثه أو وفاته فلأن وقت الهجرة لم يختلف فيه أحد بخلاف وقت مبعثه فإنه يختلف فيه، وكذلك اختلفوا في السنة التي ولد فيها ، وأمّا وقت وفاته ﷺ فغير مستحسن عقلاً[٣] .

---

(١) الشماريخ ٢٢ ـ ٢٣ ، الإعلان بالتوبيخ ٧٩ ، انظر روايات أخرى عن سبب اتخاذ التأريخ بالهجرة في : المختصر في علم التاريخ للكافيجي ص ٣٣٠ ـ ٣٣٢ ، الوافي بالوفيات ١/ ١٢ ، الشماريخ ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) الإعلان بالتوبيخ ٧٩ ـ ٨٠.

(٣) المختصر في علم التاريخ للكافيجي ٣٣١ ـ ٣٣٢ ، الإعلان بالتوبيخ ٧٩ .

وذكرت المصادر أيضاً أن عمر قد أمر بالتأريخ الهجري سنة ست عشرة أو سبع عشرة من الهجرة[١].

وورد في بعض الروايات أن النبي ﷺ هو الذي أمر بالتأريخ يوم قدومه المدينة في شهر ربيع الأول[٢].

وعرف إلى جانب التأريخ الهجري تواريخ أخرى للأمم مثل تاريخ الروم واليونان والفرس واليهود والترك والقبط[٣]. وعرف كذلك التاريخ المعتضدي[٤] والملكي الذي أدخله ملكشاه بين سنتي ٤٦٧هـ ـ ٤٧١هـ[٥].

وقد استقر التأريخ بالهجرة النبوية لدى المسلمين منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وظل لكل أمة من الأمم كالفرس والروم واليهود والقبط تأريخها الذي تجري عليه[٦].

---

(١) المختصر للكافيجي ٣٣٢ ، الشماريخ ٢٤ ، الوافي بالوفيات ١/ ١٢ ، الإعلان بالتوبيخ ٧٨ .

(٢) الشماريخ ١٩ نقلاً عن تاريخ ابن عساكر . وفي ص ٢٠ ـ ٢١ ، الإعلان بالتوبيخ ٧٨ .

(٣) انظر المختصر للكافيجي ٣٣٢ ، الشماريخ٢٧ ، الإعلان بالتوبيخ ،٨٣ ، الخطط المقريزية ٢/ ٤٧٢ ، محاضرة الأبرار ١/ ١٢٠ .

(٤) الوافي بالوفيات ١/ ١٢ .

(٥) المختصر للكافيجي ٣٣٢ .

(٦) للاستزادة في موضوع مبدأ التأريخ ينظر : التاريخ والمؤرخون العرب ، دكتور السيد عبد العزيز سالم ، ص ١٧ ـ ٣٤ ، علم التاريخ لهاملتون كب ص ١٥ ـ ٤٥ ، بحث في نشأة التاريخ عند العرب ، عبد العزيز الدوري ، الأوائل لأبي هلال العسكري ، تحقيق محمد السيد الوكيل ، المدينة المنورة ، ١٩٦٦ ، ص١٢٢ ، الآثار

وقد أسهم اتخاذ التأريخ الهجري عند المسلمين في توثيق منجزات الحضارة الإسلامية وحفظها ، مثلما أسهم في تعزيز هوية الأمة الإسلامية وثقافتها .

ولما فتح المسلمون الأندلس واستوطنوا أرضها حافظوا على استخدام التأريخ بالهجرة النبوية ، ولم يمنعهم انقطاعهم بين البحر وقارة أوروبا المسيحية من مواصلة الحفاظ على هويتهم الإسلامية ، غير أنهم حينما وجدوا أنفسهم في بيئة جغرافية واجتماعية واقتصادية وسياسية جديدة كان لا بد لهم من التأثر بهذه البيئة ، فقد وجدوا أمامهم مجتمعاً مسيحياً له عاداته وثقافته وتقاليده وطريقته في التأريخ والتقويم ، وكان من نتائج تفاعل المجتمع المسلم من المجتمع المسيحي أن تبادل الطرفان بعض ما استقرّ لدى كل منهما من العادات والتقاليد وطرائق العيش ، كما أدى اختلاط المسلمين بجيرانهم من الدول المسيحية المجاورة في أوقات الحرب والسلم والتجارة إلى اقتباس كل من الطرفين بعض ما لدى الآخر من العادات والمعارف وطرائق العيش ، وقد تجلى ذلك في موروثات المسلمين والمسيحيين على السواء في إسبانيا وما جاورها .

الباقية عن القرون الخالية لأبي الريحان البيروني ، نشرة إدوارد شاو ، ليبزج ، ١٩٢٣ ، ص ٢٩ ـ ٣٠ ، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، حمزة الأصفهاني ، مطبعة كاوياني ، برلين ، ص ٩٣ ـ ٩٦ ، تقويم قرطبة لعريب بن سعد، ٢١ ، الخطط المقريزية ٢/ ٤٧٢ .

ولدى مطالعة الآثار التاريخية والعلمية التي وصلتنا من الأندلس يقف الدارس على حالات استخدم فيها الأندلسيون التأريخ والتقويم المسيحيين إلى جانب التأريخ والتقويم الهجريين. كما يلاحظ الدارس أن المؤرخين الأندلسيين ساروا على سنن السلف في التأريخ للأحداث التي وقعت في العالم قبل الهجرة النبوية.

تأريخ الأندلسيين لأحداث ما قبل الهجرة النبوية

أرّخ المؤلّفون الأندلسيون للأحداث التي وقعت قبل الهجرة النبوية بطريقتين: الأولى تقوم على ذكر عدد السنوات التي تفصل حدثاً تاريخياً عن سابقه أو لاحقه، ويظهر ذلك في الأحداث المتصلة بالأنبياء والملوك والفلاسفة والحكماء. أما الطريقة الثانية فتقوم على التأريخ بواقعة محددة كهبوط آدم عليه السلام إلى الأرض والطوفان وعام الفيل.

أما الطريقة الأولى فيمثلها النص التالي من كتاب التأريخ لعبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨هـ):

«قال عبد الملك بن حبيب: كان بين نزول التوراة إلى نزول الزبور خمسمائة سنة، وبين الزبور إلى الإنجيل خمسمائة سنة، وبين الإنجيل إلى نزول الفرقان خمسمائة سنة. وأجمع أهل الحديث أن الدنيا كلها من يوم خلق الله آدم إلى انقضائها وانقضاء الخلق فيها سبعة آلاف سنة، وأنه قد مضى منها ستة آلاف سنة لا محالة. واختلفوا فيما مضى من الألف الباقي الذي هو تمام السبعة الآلاف. قال عبد الملك: عاش آدم

ألف سنة وكان بينه وبين نوح ألف سنة ، فهذه ألفا سنة ، وعاش نوح ألف سنة ، وكان بينه وبين إبراهيم ألف سنة ، فهذه أربعة آلاف سنة ، ثم كان بين إبراهيم إلى أن أنزل الله التوراة على موسى ألف سنة ، فهذه خمسة آلاف سنة ، ثم كان بين التوراة والزبور خمسمائة سنة وبين الزبور والإنجيل خمسمائة سنة ، فانغلق الألف السادس ، ومضى من عيسى إلى محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين خمسمائة سنة . . .»[١] .

ومن أمثلة ذلك ما ورد في كتاب الأنساب لابن عبد الحليم (ق٨ هـ) : «قال ابن قتيبة : بين داود وموسى عليهما السلام خمسمائة عام وبين داود وعيسى ألف ومائتا عام ، وبين عيسى ومحمد ستمائة عام وعشرون عاماً صلوات الله على جميع أنبيائه»[٢] .

وفي مكان آخر من هذا الكتاب «بين موت تبع وموت النبي ﷺ ألف سنة ، وقال السهيلي : بين موت جالوت ووصول تبع إلى إفريقيا خمسمائة عام ، وبين وصول تبع ومبعث النبي عيسى عليه السلام خمسمائة عام»[٣] .

وفي كتابه «محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار» تحدث محيي الدين بن عربي تحت عنوان ذكر اختلاف الأمم فيما مضى من الزمان من آدم

---

(١) كتاب التأريخ ، عبد الملك بن حبيب ٧٣ .

(٢) الأنساب لابن عبد الحليم ٣٤ .

(٣) نفسه .

إلى هجرة نبينا عليه الصلاة والسلام، عن السنوات التي تفصل بين كل حدث تاريخي والذي يليه وبين كل نبي ومن جاء بعده[١].

وأكثر ما تتجلى هذه الطريقة في كتاب طبقات الفلاسفة والأطباء والحكماء، وذلك في التعريف بمن عاش منهم قبل الإسلام، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في كتاب «طبقات الأمم» لصاعد الأندلسي في حديثه عن العلم عند الفرس حيث يقول: «وأصح ما قيل في ذلك من ابتداء ملك كيومرث بن أميم بن الأد بن سام بن نوح أبي الفرس كلها، الذي هو عندهم آدم أبو البشر عليه السلام إلى ابتداء ملك منوشهر أول ملوك الطبقة الثانية من ملوك الفرس نحو ألف سنة كاملة، ومن ملك منوشهر إلى ابتداء ملك كيقباذ بن روع أول ملوك الطبقة الثالثة من ملوك الفرس قريب من مئتي عام، ومن ملك كيقباذ إلى ابتداء ملك الطوائف وهي الطبقة الرابعة من ملوك الفرس وذلك عند مقتل الإسكندر لدارا بن دارا آخر ملوك الطبقة الثالثة من ملوك الفرس نحو ألف سنة، ومن أول ملك الطوائف إلى ابتداء ملك أزدشير بن بابك الساساني أول ملوك بني ساسان وهي الطبقة الخامسة من ملوك الفرس خمسمائة سنة وإحدى وثلاثون سنة، ومن ابتداء ملك أزدشير بن بابك إلى انقضاء دولة الفرس من الأرض وذلك عند

(١) محاضرة الأبرار ١/ ١٢٠ ـ ١٢٢.

قتل يزدجرد بن شهريار زمان خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه في سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة أربعمائة سنة وثلاث وثلاثون سنة . . .[١].

أما الطريقة الثانية من تأريخ الأندلسيين للأحداث التي وقعت قبل الهجرة النبوية فتعتمد على التأريخ بأحداث رئيسية كبرى مثل هبوط آدم عليه السلام ، والطوفان ، وعام الفيل ، ومبعث النبي محمد عليه السلام .

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في المقتبس لابن حيّان نقلاً عن المؤرخ عيسى بن أحمد الرازي عن مدينة طليطلة «كان الذي بنى مدينة طليطلة وسبق إلى اختيارها واهتدى لبديع خلقتها وقوة حصانتها ومنعتها ديوسقيوس الملك الجاهلي ، وذلك قبل أن يستكمل العالم من تأريخ آدم البشري صلى الله عليه وسلم خمسة آلاف سنة بيسير»[٢] .

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في كتاب فتح الأندلس لمؤلف مجهول عن المائدة المنسوبة إلى سيّدنا سليمان التي وجدها طارق بن زياد في طليطلة «وذلك أنّ أول من احتل قاعدة الأندلس واختطها وملكها

---

(١) الطبقات ، صاعد ص ١٥ ـ ١٦ ، ولمزيد من الأمثلة على هذه الطريقة ينظر : طبقات صاعد ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠ ، ٣٤ ، ٨٧ ، تاريخ الأطباء والحكماء لابن جلجل ٣٤ ، كتاب الأنساب لابن عبد الحليم ٢٢ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٦٢ ، كتاب التأريخ لعبد الملك ابن حبيب ١٨ ـ ١٩ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٧٣ ـ ٧٤ .

(٢) المقتبس لابن حيان ٥/ ٢٧٢ .

إسبان بن طويان بن يافث بن نوح عليه السلام على تاريخ أربعة آلاف عام من هبوط آدم عليه السلام وعلى تاريخ ألف سنة وسبعمائة سنة من الطوفان»(١).

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما ورد في كتاب التأريخ لعبد الملك بن حبيب «أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ، وتوفيت أمه آمنة وهو ابن ست سنين»(٢).

فهو بذلك يؤرخ بعام الفيل لمولد النبي عليه السلام ، ويؤرخ بمولد النبي عليه السلام لوفاة أمه آمنة.

ونجد عبد الملك بن حبيب يؤرخ بمبعث النبي عليه السلام في موضع آخر من كتابه ، حيث يقول : «إن النبي ﷺ أقام بمكة عشر سنين بعد أن نبّأه الله عز وجل وتزوج بها خديجة قبل النبوة»(٣).

أما صاعد في طبقاته فقد أرّخ لخراب سد مأرب بالطوفان فقال : «فأما اليمن وكانت دار قحطان إلى خراب مأرب(٤).. وذلك بعد الطوفان بألفي سنة وستين سنة شمسية».

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن المؤرخين الأندلسيين قد اعتمدوا في ذلك على من سبقهم من مؤرّخي أهل المشرق ، وأنهم لم

---

(١) فتح الأندلس لمجهول ٣٥.

(٢) كتاب التأريخ لعبد الملك بن حبيب ٧٨.

(٣) نفسه ٨٢.

(٤) طبقات صاعد ٤٦.

ينفردوا باستخدام هذين النوعين من التأريخ لأحداث ما قبل الهجرة النبوية[١].

الأحداث الأندلسية والتأريخ المسيحي

أما الأحداث والوقائع التي جرت بعد الهجرة النبوية فقد استخدم لها الأندلسيون التأريخ الهجري من غير أن يخلّوا بذلك في أيّ من مؤلفاتهم أو مراسلاتهم أو عهودهم ، ولكنهم استخدموا إلى جانب ذلك في بعض الأحيان التأريخ والتقويم المسيحيين ، وكان ذلك نتيجة لمخالطتهم المسيحيين في الأندلس ولمجاورتهم الدول المسيحيّة وعلاقاتهم معها. وقد تجلّى هذا المظهر في حالات عدة من الكتابة والتأليف ، من أبرزها :

١ ـ معاهدات الصلح والاتفاقيات المبرمة بين الأندلسيين والدول المسيحية المجاورة: فقد كانت هذه المعاهدات والاتفاقيات تحمل في الغالب التأريخين الهجري والميلادي. وقد كان من الطبيعي أن يحمل هذا النوع من الكتابة التأريخين معا لأنه ينظم العلاقة بين طرفين يستخدم كل واحد منهما تأريخا يختلف عن تأريخ الآخر. وإلى ذلك أشار ابن فضل الله العمري في كتابه «التعريف بالمصطلح الشريف» عندما تحدث عن الهدن فقال : «ولهم عادة أن

---

(١) انظر : تاريخ الأطباء والفلاسفة لإسحاق بن حنين (ت٢٩٨هـ) ، (منشور مع كتاب طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل) ص ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ـ ١٥٨ ، ١٦٤ ـ ١٦٥.

يحسبوها مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالقمرية ويذكر سنين وأشهرا وأياما وساعات حتى يستكمل السنين الشمسية المهادن عليها»(١).

ومن الأمثلة على الاتفاقيات والمعاهدات والهدن المؤرخة بالتاريخين الهجري والميلادي معاهدة سلام عقدت بين محمد الخامس الغني بالله ملك غرناطة وبدرو الرابع ملك أراغون ورد في آخرها ما نصه : «كتبنا هذا وجعلنا عليه خط يدنا وطابعنا وكتبنا منه نسخة أخرى ليكون الواحدة عندنا والأخرى عندكم ، وكتب في تاريخ العاشر من شهر مارس من عام ألف وثلاثمائة وسبعة وستين لتاريخ الصفر وموافقة العشر الأول لرجب الفرد عام ثمانية وستين وسبعمائة»(٢).

ومن ذلك معاهدة صلح أخرى بين الغني بالله محمد الخامس ملك غرناطة وبدرو الرابع ملك أراغون ، وفي آخرها : «أمرنا بكتب هذا العقد وجعلنا عليه خط يدنا وأمرنا أن يجعل عليه طابعنا المعهود عنا وأن يكون في نسختين بالعربي والعجمي لتكون إحداهما عندنا والأخرى عندكم وذلك بتاريخ اليوم الثامن عشر لشهر الله المحرم فاتح عام تسعة وسبعين وسبعمائة وبموافقة السابع والعشرين من مايه سنة ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين من تاريخ العجم»(٣).

---

(١) التعريف بالمصلح الشريف ٢٣٩ .

(٢) الوثائق العربية السياسية في أرشيف مملكة أراغون ١٤٧ .

(٣) نفسه .

وورد في رسالة من السلطان أبي الحسن علي بن سعد ملك غرناطة إلى بعض أمراء الإسبان بشأن تجديد الصلح ما نصه : «إن مقامنا الكريم يعقد ويجدد معكم صلحاً صحيحاً ومحبة ثابتة خالصة لهذه من عشرة أعوام أعجمية متوالية يكون أولها أول يوم من شهر ينير الأعجمي مفتح عام اثنين وسبعين وأربعمائة وألف لتأريخ المسيح ، ويكون تمامها آخر يوم من شهر ذجنبر الأعجمي عام أحد وثمانين وأربعمائة وألف لتاريخ المسيح المذكور»(١) .

وفي وثيقة بيع من وثائق أرشيف كاثدرائية وشقة Huesca نقرأ ما يلي : «شهد على أشهاد المتعاوضين المذكورين بذلك كله من عرفهم في صحتهم وجائز أمرهم في شهر المحرم من سنة تسع وسبعين وخمسمائة ووافق ذلك شهر مايه سنة إحدى وعشرين ومائتين من تأريخ الصفر»(٢) .

وتكتفي كثير من الاتفاقيات وعقود البيع والشراء والمعاهدات بذكر الأشهر الشمسية باللغة الأعجمية دون ذكر السنة إلى جانب التاريخ الهجري ، ومثال ذلك عقد بيع أبرم في غرناطة في السادس من شوال سنة ٨٨٥هـ وورد فيه «وعشرة دنانير منها يتدفع في أكتوبر الثاني من هنا لتاريخه وثمانية الدنانير الباقية يتدفع عند انقضاء أكتوبر الثالث من هنا لتاريخه»(٣) . ويعلق لويس سيكو دي لوثينا على هذه

---

(١) أربع رسائل ١٢ ، آخر أيام غرناطة ١٧٧ .

(٢) الوثائق العربية في أرشيف كاثدرائية وشقة ٢٧ .

(٣) وثائق عربية غرناطية ٧٢ .

الوثيقة بقوله : «وينبغي أن نشير إلى بعض ما تكشف لنا المجموعة عنه من مظاهر أخرى تتصل بالحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد التي جرى عليها أهل غرناطة في ذلك العصر (القرن التاسع الهجري) ، فمن ذلك أنه كان عندما يحرر عقد بيع عقار في المدينة ويشترط فيه أن يكون دفع الثمن منجما على الشهور تكون هذه الشهور هي القمرية ، كلما انقضى منها شهر حل موعد أداء جزء من الثمن ، أما إذا كان المبيع عقارا زراعيا فإن الحساب يكون على أساس نهاية السنة الزراعية ، وكانت هذه السنة تنتهي في شهر أكتوبر في الأندلس ، ولهذا ونظراً لتغير مواقيت الشهور الهجرية فقد كانوا عند حساب المواعيد التي تحل فيها آجال أداء الدين يتخذون الشهور الشمسية أساسا»[١] .

ومن الأمثلة على الاتفاقيات والمعاهدات وعقود البيع والرسائل المؤرخة بالأشهر الشمسية إلى جانب الأشهر القمرية معاهدة سلام عقدت بين إسماعيل الأول ملك غرناطة وخايمي الثاني ملك أراغون سنة ٧٢١هـ ، فقد جاء في ختامها «أمرنا بكتبه وجعلنا عليه خط يدنا وعلقنا عليه طابعنا توثيقا لحكمه ، وذلك في السابع عشر لربيع الآخر عام أحد وعشرين وسبعمائة وبموافقة السادس عشر من شهر مايه[٢] .

---

(١) وثائق عربية غرناطية ٢٣م .

(٢) الوثائق العربية السياسية في أرشيف مملكة أراغون ٣٤. ولمزيد من الأمثلة انظر المصدر نفسه ص ١١٩ ، ١٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٤٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٣٠٠ وانظر : الوثائق العربية في أرشيف كاتدرائية وشقة ص ١٧ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٧ .

٢ ـ التأريخ للأحداث الكبرى التي مرت بها الأندلس: ولعل استخدام التأريخ المسيحي والتقويم الشمسي إلى جانب التقويم القمري في التأريخ لمثل هذه الأحداث يعود إلى الرغبة في إبرازها لأهميتها ولأنها كذلك تمثل حدثاً مشتركاً بين المسلمين والمسيحيين ، ولذلك فإنها تعني المسيحيين مثلما تعني المسلمين. ومن الأمثلة على ذلك ما أورده ابن حيّان في المقتبس نقلاً عن المؤرخ الرازي في الحديث عن إحدى غزوات الخليفة عبد الرحمن الناصر «قال الرازي : برز الخليفة الناصر لدين الله لغزاته هذه يوم الخميس لثمان خلون من شهر رمضان من هذه السنة (٣٠١هـ) وهو اليوم السابع من شهر إبريل العجمي سنة اثنتين وخمس وتسعمائة لتاريخ الصفر ، ولسنة ألف ومائتين وخمسٍ وعشرين سنة لذي القرنين»[١].

ومن الأمثلة أيضاً ما أورده ابن حيّان عن الرازي عند وفاة ملك جليقية «لما هلك فرويلة بن أردون ملك جليقية لعنه الله في سنة ثلاث عشرة وثلاث مائة التي هي سنة اثنتين وستين وتسعمائة لتاريخ الصفر»[٢].

وفي نص لمؤلف مجهول عن عبد الرحمن الناصر «بويع بعد موت جده الإمام عبدالله في اليوم الذي توفي فيه ، وذلك في يوم الخميس

(١) المقتبس ٨٥/٥.

(٢) نفسه ٥/ ٣٤٤ .

مستهل شهر ربيع الأول سنة ثلاثمائة ، وذلك لخمسة عشر يوماً مضت لشهر أكتوبر الشمسي سنة ألفٍ ومائتين وثلاث وعشرين سنة وخمس عشرة ليلة من سني الأسكندر»(١).

وفي حديثه عن مولد السلطان محمد الخامس الغني بالله ابن نصر يقول لسان الدين بن الخطيب في كتاب الإحاطة «في نحو ثلث ليلة الاثنين والعشرين من جمادى الآخرة عام تسعةٍ وثلاثين وسبعمائة. قلت : ووافقه من التاريخ الأعجمي رابع يناير من عام ألف وثلاثمائة وسبعة وسبعين لتاريخ الصفر(٢).

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في كتاب التأريخ لعبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨هـ) أنه في أثناء الإعداد لفتح الأندلس كتب موسى ابن نصير إلى طارق بن زياد : «إنك ستنتهي إلى صخرة على شاطىء البحر فاشحن سفنك عندها واطلب فيمن عندك رجلاً يعرف أسماء الشهور بالسريانية فإذا كان يوم أحد وعشرين من أيار ، وهو بالحساب الأعجمي مايه ، فاجسر على بركة الله وعونه . .»(٣).

وورد استخدام الأشهر الشمسيّة بالرومية في مواضع كثيرة من كتاب فتح الأندلس لمؤلف مجهول ، فمن ذلك في الحديث عن معركة وادي لكة ، «فاقتتل الفريقان سبعة أيام قتالاً شديداً حتى أنزل الله نصره على المسلمين وذلك يوم الأحد لسبع خلون من شوال وليومين

---

(١) Una Cronica Anonima, p. 28.

(٢) الإحاطة ٢/٩١ .

(٣) كتاب التأريخ لعبد الملك بن حبيب ١٣٧ .

مضيا من أكتبر وهذا يصحح أن الجواز في أغشت»[١] . ومن ذلك أيضاً «أن دخول طارق الأندلس وافتتاحه لها كان يوم الاثنين لخمس خلون من آب وهو أغشت سنة ٩٢للهجرة»[٢] .

ومنه أيضا : «دخل الإمام عبد الرحمن الداخل الأندلس في غرة ربيع الأول سنة ١٣٦ووافق ذلك أول شهر شتنبر بالحساب العجمي»[٣] .

وفي حديثه عن خلع المعتمد بن عباد يقول : «ثم خلع المعتمد ضحى يوم الأحد الموفي عشرين من رجب سنة ٤٨٣ وبالعجمي لست خلون من شتنبر . .»[٤] .

ومن المصادر التاريخية الأندلسية التي كثر فيها استخدام الأشهر الشمسية باللغة الرومية كتاب المقتبس لابن حيان القرطبي (ت٤٦٩ هـ) ومن الأمثلة التي وردت فيه :

- «سنة إحدى وستين وثلاثمائة أول المحرم فاتحتها يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من أكتوبر الشمسي»[٥] .
- وافى العيد بالاستهلال الفاشي يوم الثلاثاء السادس عشر من يوليه العجمي[١] .

---

(١) فتح الأندلس لمجهول ص١٩ .

(٢) نفسه ٢١ ـ ٢٢ .

(٣) نفسه ٨١ .

(٤) نفسه ١١٧ .

(٥) المقتبس/ تحقيق الحجي ص ٦٦ .

- «ذكر عيد الأضحى الكائن في هذه السنة ، ووافى يوم الثلاثاء العاشر لذي الحجة والثاني من شهر شتنبر الشمسي»[٢] .
- ويتحدث عن غزوة الناصر لابن حفصون سنة ٣٠٧هـ قائلاً : «فكان بروزه لها يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة ، وفصوله إليها يوم الثلاثاء للنصف من ذي الحجة من هذه السنة ، إلى ستة وعشرين يوماً من بروزه لها وتعبئته لعساكرها ، وكان يوم الثلاثاء المذكور اليوم الثاني والعشرين من شهر مايه الشمسي»[٣] .
- «سنة ثمان وثلاث مائة أول المحرم فاتحتها يوم الاثنين الثاني والعشرون من مايه العجمي»[٤] .
- يتحدث عن حوادث سنة ٣٢٢هـ «وذلك يوم الخميس للنصف من جمادى الأولى منها ، وكان أول يوم من شهر مايه الشمسي»[٥] .

---

(١) نفسه ٨١ .

(٢) نفسه ١٣٦ .

(٣) المقتبس ، الجزء الخامس ، ص١٤٧ .

(٤) نفسه ١٥٩ .

(٥) نفسه ٣٣٣ ، وانظر أمثلة أخرى ص٣٩٣ ، ٤٣٣ .

وربما كان رجوع المؤرخين الأندلسيين لمصادر ووثائق في أصولها الإسبانية سبباً في استخدامهم للتاريخ الميلادي والإسكندري إلى جانب التاريخ الهجري.

ومما يدل على ذلك ما ورد في نفح الطيب نقلاً عن المقتبس لابن حيان: «فوقع في تواريخ العجم القديمة أن عدّة ملوك هؤلاء القوط في الأندلس من عهد أتاناوينوس الذي ملك في السنة الخامسة من مملكة فلبش القيصري لمضيّ أربعمائة وسبع من تاريخ الصفر المشهور عند العجم إلى عهد لذريق آخرهم الذي ملك في السنة التاسعة والأربعين وسبعمائة من تاريخ الصفر. وهو الذي دخلت عليه العرب فأزالت دولة القوط، ستة وثلاثون ملكاً، وأن مدة أيام ملكهم بالأندلس ثلاثمائة واثنتان وأربعون سنة»[١].

وفي كتاب أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب في إطار تعريفه بملوك النصارى بالأندلس ذكر أنه رجع لمصدر قشتالي ولذلك استخدم التاريخ الميلادي والتاريخ الهجري معاً[٢].

٣ ـ التاريخ للأرصاد الجوية الكبرى التي مرت بها الأندلس كالسيول والقحط والزلازل والبرق والرعد وظهور بعض الكواكب، ولا شك أن سبب استخدام التقويم الشمسي في التأريخ لهذه الأرصاد يعود إلى طبيعة التقلبات المناخية التي تحدث أصلاً في مواسم ثابتة ترتبط بالتقويم الشمسي، وأكثر من أشار إلى أخبار الأرصاد

---

(١) نفح الطيب ١/ ١٣٩ والمعلومات الواردة في هذا النص ليست دقيقة تماما.

(٢) أعمال الأعلام ٣٢٢ ـ ٣٣٨ وهذه الصفحات ملحقة في نهاية هذه الدراسة.

الجوية هو ابن حيان القرطبي في كتابه «المقتبس»[١]. ومن أمثلة ذلك ما ورد فيه عن حوادث سنة ٣٣٠هـ.

- «في المحرم منها طلع الكوكب الذني في الأفق الغربي بقرطبة إزاء العقرب، منحرفاً عنها، فكاد يتصل بالفلكة العليا في رأي العين، وكان أول ليلة لاح فيها للإبصار ليلة السبت لثمان بقين من المحرم منها، وهي ليلة ست عشرة خلت من أكتوبر الشمسي، وتمادى طلوعه، مستعلياً مكبدا في السماء حتى توارى»[٢].
- وفي حوادث السنة نفسها يقول: «توقف الغيث آخر شهر دجنبر الشمسي بقرطبة وأعمالها، وقحط الجباب، فبطل الاحترات، وجدب الزمان، ووجب الاستسقاء، فشرع قاضي الجماعة بقرطبة، صاحب الصلاة بها، محمد بن عبد الله بن أبي عيسى في الاستسقاء في خطب الجمعة، من أول يوم الجمعة لليلتين خلتا من ربيع الآخر منها، وكان يوم سبعة من شهر ينير الشمسي، وواصل الاستسقاء في خطبتي الجمعتين، ثم تمادى القحط وبرز الناس أول بروز كان له في هذه السنة إلى مصلى الربض للاستسقاء عن موعده يوم الثلاثاء لعشر

---

(١) انظر أمثلة على ذلك في المقتبس، تحقيق الحجي، ص ٧٢ ـ ٧٣، ١٠٧، ١٤٤ ـ ١٤٥، ١٥٤، المقتبس/ تحقيق مكي ص٥، ٣٢٤، المقتبس، الجزء الخامس ص ٢٥١، ٤٧٣.

(٢) المقتبس، الجزء الخامس ٤٧٣.

بقين من ربيع الآخر ، وهو اليوم الثاني عشر من ينير ، ثم برز الثانية إلى مصلى الربض يوم الاثنين لأربع بقين من ربيع الآخر وهو السابع عشر من ينير ، ثم برز الثالثة إلى مصلى الربض أيضاً يوم الخميس منسلخ ربيع الآخر ، وهو اليوم العشرون من ينير ، ثم برز الرابعة إلى مصلى المصارة أول بروزه إليه ، وذلك يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الأولى بعده منها ، وهو الثاني والعشرون من ينير ، ثم برز الخامسة إلى مصلى المصارة وهو البروز الثاني عليها ، وذلك يوم الثلاثاء لخمس خلون من جمادى المؤرخة ، وهو الخامس والعشرون من ينير ، ثم برز السادسة إلى مصلى المصارة ، وهو البروز الثالث إليها ، وذلك يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة خلت من جمادى الأولى وهو اليوم الأول من شهر فبرير الشمسي . .»[١] .

وفي الحديث عن السيل الكبير بإشبيلية يذكر ابن عبد الملك المراكشي : «وذلك في التاسع عشر لجمادى الآخرة عام سبعة وتسعين وخمسمائة ووافقه من العجمي السادس والعشرون من مارس»[٢] .

وفي هذا السياق أيضاً نجد الأندلسيين يستخدمون مفردات التقويم الرومي في المنظومات الشعرية التي تبحث في الموضوعات الفلكية ، ومن ذلك قصيدة في معرفة المتوسط من المنازل وقت الفجر ، لأبي

---

(١) نفسه ٤٧٦-٤٧٧.

(٢) الذيل والتكملة س٥ ق٢ ص٦٦١ .

جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن أصبغ بن جهور الجذامي الإشبيلي (ت ٦٢٧هـ) ، ومن أبياتها[١] :

إذا مرّ يومٌ من أغشت توسّط ... الرشاءُ ونور الفجر ضافي الغلائلِ

وإمّا تقضّتْ تسعةٌ من شتنبرٍ ... فللدبران السبق يوم التفاضل

وإنْ مرّ من أكتوبرٍ ستٌّ انبرَتْ ... له هنعةٌ ترمي بسهم المناضل

فإن مرّ تسعٌ من نوبنبر انبرى ... له الطرف يوصي حلفه بالتواصلِ

وإمّا ثمانٍ من دجنبرٍ انقضَتْ ... فصرفتها تبدي الأسى إثر راحلِ

فإن عشر انقضت لينّر اغتدى ... بها الغفرِ مرتاحاً لألفٍ مواصل

وفي عشرٍ انقضت لمرسٍ وتسعةٍ ... ترى شولةً سبّاحةً في الجداول

فإنْ مرّ من إبريل عشرٌ وأربعٌ ... فأحببْ بنهرٍ للنعائم سائل

فإن مرّ يومان لمايه انتحى ... لبلدتها رامٍ حديد المعابل

فإن رحلت ستٌ ليونية فإنما ... ترى بلعاً في غيرها مثل ثاكل

وفي أوّل من يوليه السعد حلّه ... لأخبيةٍ يعزى فهل من مطاول

... الخ .

(١) الذيل والتكلمة س١ ق١ ص٢١٠ ـ ٢١٢ .

٤ ـ الرحلات : وقد استخدم بعض مصنفي الرحلات التقويم الشمسي إلى جانب التقويم القمري ، لأنهم يعبرون في رحلاتهم بلاداً تستخدم هذا التقويم أو ذاك ، وأكثر ما يتجلى ذلك في رحلة ابن جبير التي قام بها إلى المشرق سنة ٥٧٨هـ حتى ٥٨١ هـ ، ففي معظم الحالات التي أرخ فيها لمسار رحلته استخدم التقويم الشمسي وأسماء الشهور الرومية إلى جانب التقويم القمري . فعند حديثه عن تاريخ بدء الرحلة قال : «أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور (٥٧٨هـ) وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبرير الأعجمي ..»[١] . وعندما يتحدث عن مغادرته جزيرة سردانية يؤرخه بالقول : أول ليلة الثلاثاء الحادي عشر من الشهر المذكور (ذو القعدة) وهو الثامن من «مارس»[٢] . ويستمر على هذا المنهج في معظم مراحل رحلته[٣] .

٥ ـ كتب الفلاحة والأغذية والطب والطبيخ وما شاكلها : فقد احتوت هذه الكتب على حالات استخدم فيها التقويم الشمسي

---

(١) رحلة ابن جبير ١٧ .

(٢) نفسه ١٨ .

(٣) انظر ص ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ـ٢٠٢ ، ٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ـ٢٤٠ ، ٢٤٣ـ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ .

مع استخدام أسماء الأشهر الرومية ، وفي هذه الكتب اقتصر المؤلفون على استخدام التقويم الشمسي دون التقويم القمري ، وذلك بسبب ارتباط مواسم الفلاحة وإعداد أنواع من الأغذية والطبخ بمواسم ومواعيد ثابتة لا يمكن قياسها أو تحديدها إلا بالتقويم الشمسي ، وبعضها متوارث عن عادات أهل البلاد الأصليين أو منقول عن كتب الفلاحة والطب والأعشاب اليونانية وعلماء اليونان مثل جالينوس وديسقوريدس ويونيوس وديمقراطيس وقسطوس وسواهم .

ومن أوضح الشواهد على ذلك كتاب المقنع في الفلاحة لابن حجّاج الإشبيلي حيث استخدم الأشهر الشمسية الرومية لتحديد مواعيد الزراعة والتطعيم والتركيب والتسميد لكثير من أنواع الشجر والنبات(١) .

ويلاحظ كذلك أنه استخدم أسماء الشهور الفارسية مثل مهرماه وديماه(٢) . إلى جانب الشهور السريانية (كانون وشباط .. إلخ) والشهور الرومية (ينير ، فبرير ، ... الخ) .

ولعل المؤلف قد أراد بذلك أن يفيد من كتابه كل حسب التقويم الذي يستخدمه في بلده .

---

(١) انظر المقنع في الفلاحة لابن حجاج الإشبيلي ، ص ١٤ ، ١٥ ، ٢١ ، ٣٦ ـ ٣٨ ، ٤٠ ـ ٤٥ ، ٤٦ ـ ٤٧ ، ٦٣ ـ ٦٦ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١١٤ ـ ١١٥ .

(٢) نفسه ، ١٥ ، ٤٦ .

وفي أحد فصول الكتاب جعل المؤلف له العنوان التالي : ما ينبغي أن يصنع في كل شهر ولا يؤخر إلى غيره[١] ، ثم أورد الأشهر على النحو التالي ، وذكر بإزاء كل شهر ما يزرع فيه أو يعمل من أجل الفلاحة[٢] :

شهر يناير : وهو كانون الآخر .

شهر فبراير : وهو شباط .

شهر مارس : وهو آذار .

شهر إبريل : وهو نيسان .

شهر مايه : وهو أيار .

شهر يونيه : وهو حزيران .

شهر يوليه : وهو تموز .

شهر غشت : وهو آب .

شهر شتنبر : وهو أيلول .

شهر أكتوبر : وهو تشرين الأول .

شهر نوفمبر : وهو تشرين الآخر .

شهر دجنبر : وهو كانون الأول .

وفي فصل آخر يذكر الشهور مرة أخرى ويحدد في كل شهر منها أيام الرجس التي أنزلها الله على بني إسرائيل[٣] .

---

(١) نفسه ، ٦٤ .

(٢) نفسه ، ٦٤ ـ ٦٦ .

(٣) نفسه ٨٤ .

وأما مؤلفو كتب الأغذية فقد كانت عنايتهم بالتوقيت من أجل تحديد الأطعمة الملائمة للجسم في كل فصل من فصول السنة ، وقد استخدموا لذلك التقويم الشمسي. ومن الأمثلة على ذلك كتاب الأغذية تأليف ابن خلصون الأندلسي ، فقد جعل المؤلف المقالة الرابعة من الكتاب بعنوان «في تدبير فصول السنة»[١] . فحدد بداية كل فصل ونهايته وما يصلح له من أنواع الأطعمة . يقول عن فصل الربيع «وأول هذا الفصل بإجماع إذا حلت الشمس بأول دقيقة من برج الحمل ، وهو الكبش ، واختلفوا متى يكون ذلك ، فقال بطليموس يوم خمسة عشر من شهر مارس ، فيكون آخر الفصل من يوم أربعة عشر من شهر يونيه ، وقال الهندي وأرسطو ذلك يوم ثلاثة وعشرين من مارس فيكون آخر الفصل من يوم اثنين وعشرين من شهر يونيه. وعلى مذهب الأول صنع الإسطرلاب وعلى مذهب الثاني شواهد بالتجربة ، وهو الأصح»[٢] .

أما عن فصل الصيف فيقول : «وذلك من أول حلول الشمس بأول دقيقة من برج السرطان ، وذلك من يوم خمسة عشر من يونيه إلى يوم اثنين وعشرين من شتنبر على مذهب بطليموس ، أو من يوم ثلاثة وعشرين من يونيه إلى يوم اثنين وعشرين من شتنبر على مذهب الهندي والحكيم»[٣] .

---

(١) كتاب الأغذية لابن خلصون ٧٠ .

(٢) نفسه ٧٠ .

(٣) نفسه ٧٠ .

وعن فصل الخريف يقول : «أول هذا الفصل عند حلول الشمس بأول دقيقة من برج الميزان ، وذلك من يوم خمسة عشر من شتنبر إلى يوم أربعة عشر من دجنبر على مذهب بطليموس ، ومن يوم ثلاثة وعشرين من شتنبر إلى يوم اثنين وعشرين من دجنبرعلى مذهب الهندي والحكيم»[١].

أما عن فصل الشتاء فيقول : «وهو من أول حلول الشمس برأس الجدي وذلك من يوم خمسة عشر من دجنبر إلى أربعة عشر من مارس على مذهب بطليموس ، أو من يوم ثلاثة وعشرين من دجنبر إلى يوم اثنين وعشرين من مارس على مذهب الحكيم والهندي»[٢].

أما كتب الطبيخ فقد استخدم فيها التقويم الشمسي بأسماء الشهور الرومية ، ومن هذه الكتب كتاب فضالة الخوان لابن رزين التجيبي ، ومن الأمثلة على استخدامه للشهور الرومية قوله : «وإن أردت أن تشوي من الحوت الصغير على الجمر مثل السردين الذي يخرج في شهر مايه أو في شهر أكتوبر أو الجركم الذي يخرج في شهر شتنبر . .»[٣].

وقوله في موضع آخر عن طريقة عمل الزيتون : «يؤخذ الزيتون المجني في أكتوبر ونونبر كبيراً كان أو صغيراً فيغسل . .»[٤].

---

(١) نفسه ٧٣.

(٢) نفسه ٧٥.

(٣)فضالة الخوان ، ٢٠٠

(٤) نفسه ، ٢٥٥.

وأما كتب الطب فقد استخدم مؤلفوها الأشهر الرومية عند حديثهم عن الأزمنة والفصول وما يصلح فيها. ومن هذه الكتب كتاب مختصر في الطب لعبد الملك بن حبيب (ت٢٣٨هـ) مما يدل على أن استخدام الأندلسيين للتقويم الرومي كان مبكراً. وفي حديثه عن الأزمنة يقول عبد الملك بن حبيب «فالشتاء ثلاثة أشهر دجنبر وينير وفبراير،... والربيع ثلاثة أشهر وهي: مارص وإبريل وميه.. والصيف ثلاثة أشهر: ينيه ويليه وغشت.. والخريف ثلاثة أشهر: شتنبر، وأكتبر، ونوبنبر»[(١)].

ومما يلاحظه الدارس أن كتب الفلاحة والأغذية والطبيخ والطب لم تستخدم التقويم القمري، لأن هذه الكتب تعنى بأوقات ثابتة من كل عام، لا يصلح لها إلا التقويم الشمسي.

٦ ـ ومن الحالات التي تظهر فيها عناية الأندلسيين بالتقويم الشمسي والأشهر الرومية مراقبتهم لمواعيد الأعياد المسيحية التي كان مسلمو الأندلس يحتفلون بها ويرقبون وقت قدومها، مثل عيد رأس السنة الميلادية الذي يطلقون عليه عيد ينير، وعيد العنصرة في أواخر شهر حزيران (يونيو)، وخميس إبريل وغيرها من الأعياد المسيحية. وقد توسع في الإشارة إلى هذه الظاهرة الفقيه أبو القاسم العزفي في رسالة كتبها بعنوان: «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» فمما قاله مشيراً إلى أهل الأندلس: «وإن تعجب

---

(١) مختصر في الطب، عبد الملك بن حبيب، ٧٨ ـ ٧٩.

أيها الناصح لنفسه فاعجب من إحصائهم لتواريخهم والاعتناء بمواقيتها ، فكثيراً ما يتساءلون عن ميلاد عيسى (على نبينا وعليه السلام) ، وعن ينير سابع ولادته ، وعن العنصرة ميلاد يحيى - على نبينا وعليه السلام»[١].

ويذكر العزفي أن هذه الظاهرة رسخت في عقول الأندلسيين بمرور الزمن[٢]. ويعلق في آخر رسالته قائلاً :

«ومما فتن الناس فيه السؤال عن مولد عيسى (عليه السلام) ، فكثيراً ما يتساءلون عنه ، أو ليس كانوا بميلاد نبينا محمد عليه السلام أولى والتهمم به ومعرفته ، فكثير منهم لا يعلمون ذلك»[٣].

وفي إطار عناية الأندلسيين بالتقويم الشمسي والشهور الرومية ألف أبو الحسن عريب بن سعد (ت ٣٧٠هـ) كتاب الأنواء (أو تقويم قرطبة) (أو : في تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان) . رتبه على الشهور العجمية - حسب تعبيره - وذكر ما في كل شهر من أعياد ومواسم وما يصلح فيه من زراعة وعناية بالبدن ، وفي ذلك يقول ابن سعد : «وقد ذكرت في هذا الكتاب جميع أعياد العجم التي لا تختلف أوقاتها ولا تتغير أزمانها، وذكرت ذلك عيداً بعد عيد في كل شهر من شهورهم ليكون ذلك زيادة في المعرفة وعونا على الدلالة . .»[٤].

---

(١) الدر المنظم ، ١٩ - ٢١ .

(٢) نفسه ٢٨ .

(٣) نفسه ٢٩ .

(٤) تقويم قرطبة ٢١ .

وعن سبب ذكر الشهور العجمية يقول : «ثم نذكر الشهور العجمية وما يوافقها من البروج والمنازل وما لكل شهر من الأيام ومكانه من الأزمان وطبعه وما يصلح استعماله فيه وما لا غنى لكل أحد من معرفته وارتقاب وقته من مرافق الناس ومصالحهم في أبدانهم وأقواتهم»(١) .

ومن أمثلة ما فيه :

- «شهر ينير ، وهو بالسريانية كانون الآخر ، وبالقبطية طوبه . .

اليوم الأول : النهار فيه من تسع ساعات ونصف ، والليل من أربع عشرة ساعة ونصف ، وفيه يغيب الشفق إذا مضى من الليل ساعة وسبع ، ويطلع الفجر إذا بقي من الليل مثله ، يوم النيروز ، وفيه للعجم عيد ختان المسيح بسنة التوراة ، وهذا اليوم هو من أيام الرجس يسمى عند الروم جبسياقو»(٢) .

- «شهر فبرير : وهو بالسريانية سباط وبالقبطية أمشير . . .

اليوم الرابع عشر : عيد للعجم بلانتين . . Valentine

السادس والعشرون : . . . وهو من أول أيام العجوز .

السابع والعشرون : الثاني من أيام العجوز ، وهو صنبر ، أيام العجوز خمسة وقيل سبعة ثلاثة من فبرير وأربعة من مارس . .»(٣) .

(١) نفسه ٢١ .

(٢) نفسه ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٣) نفسه ص ٤٣ ـ ٤٧ .

• شهر إبريل : وهو بالسريانية نيسان وبالقبطية برموده . .

اليوم الرابع والعشرون : هو آخر مواقيت فصح العجم وأكبر أعيادهم . . .»[١] .

• شهر يونيه : وهو بالسريانية حزيران وبالقبطية بؤونه . .

اليوم الرابع والعشرون : هو يوم العنصرة ، وفيه حبست الشمس أيام يهوشاع بن نون عليه السلام ، وفيه ميلاد يحيى بن زكريا عليهما السلام . .»[٢] .

• شهر دجنبر : وهو بالسريانية كانون الأول ، وبالقبطية كييك . .

اليوم الخامس والعشرون : فيه عيد ميلاد المسيح عليه السلام ، وهو من أعظم أعيادهم . .»[٣] .

ويتضح من عرض عريب بن سعد للأعياد والمواسم المسيحية في الأندلس عمق انخراط الأندلسيين في هذه المناسبات ومراعاتهم لها ومعرفتهم بتفاصيلها ، مما أدى إلى اهتمامهم بالتقويم الشمسي واستخدامهم للشهور الرومية أو العجمية إلى جانب تاريخهم الرسمي بالأشهر القمرية والسنين الهجرية .

ونقف على حالات أخرى استخدم فيها الأندلسيون التقويم الرومي ، فمن ذلك ما ذكره محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمري عن تاريخ ميلاده متحدثاً عن قرية الحجيرة في إشبيلية : «فكانت

---

(١) نفسه ٧٣ .

(٢) نفسه ١٠١ .

(٣) نفسه١٨٣ .

ولادتي بها لعشر ليالٍ بقيت من شهر أكتوبر الأعجمي ولا أدري ما وافق من الأشهر العربية لتلف تقييداتي وتقييدات سلفي في ضيعة كتبي ، إلاّ أنّ والدتي كانت تقول : كنت ليلة موسم ينير من أربعين ليلة . .»[١] .

واللافت للنظر في هذا النص أن اليعمري يحفظ تاريخ ميلاده بالتقويم الرومي ولا يعرفه بالهجري .

فهل كان التقويم الميلادي شائعاً في التعاملات اليومية بين عامة الناس؟! وهل كان استخدام التقويم الهجري مقتصراً على المعاملات الرسميّة والمؤلفات والوثائق وما شابهها؟!

(١) الذيل والتكملة س٥ ، ق٢ ، ص٦٦٠ ـ ٦٦١ .

خاتمة المبحث

ورد في كتاب المقتبس لابن حيان ما نصه :

«وكان أول من سن لكتاب السلطان وأهل الخدمة تعطيل الخدمة في يوم الأحد من الأسبوع والتخلف عن حضور قصره قومس بن أنتنيان كاتب الرسائل للأمير محمد ، وكان نصرانياً دعا إلى ذلك لنسكه فيه ، فتبعه جميع الكتاب طلب الاستراحة من تعبهم والنظر في أمورهم ، فانتحوا ذلك ومضى إلى اليوم عليه»[1].

ويدل هذا النص على ظاهرتين مهمتين عرفتا في الأندلس ، أولاهما : أن الكتّاب وأهل الخدمة كانوا يعطلون أعمالهم يوم الأحد من كل أسبوع ، وذلك بمعرفة وموافقة من الأمير محمد بن عبد الرحمن (ت ٢٧٣هـ) وأن هذه الظاهرة كانت مستمرة في الأندلس حتى أواخر أيام ابن حيّان صاحب كتاب المقتبس المتوفى سنة ٤٦٩هـ. والذي يلفت النظر في سبب انتشار هذه الظاهرة أن كاتب الرسائل للأمير محمد كان نصرانياً فجعل عطلته يوم الأحد لنسكه فيه ، وهي إشارة تدل على أن أعلى سلطة في الأندلس كانت تحترم ثقافات العناصر التي يتألف منها المجتمع الأندلسي وتراعي خصوصياتها حتى لو أصبحت بعض هذه الخصوصيات جزءاً من عادات المجتمع الإسلامي في الأندلس .

---

(١) المقتبس/ تحقيق مكي ص١٣٨ .

والظاهرة الثانية أن سلاطين الأندلس كانوا في وقت مبكر من الحكم الإسلامي لا يفرّقون بين مسلم ومسيحي في وظائف الدولة.

إن المجتمع الأندلسي الذي كان الكتّاب وأهل الخدمة فيه يعطلون أعمالهم يوم الأحد، والذي كان ينال فيه المسيحيون حقوقهم في وظائف الدولة بل ويستنون ما يرون من العادات والتقاليد، والذي كان أبناؤه يشاركون المسيحيين أعيادهم مثل عيد الميلاد وعيد النيروز وأيام العجوز وخميس إبريل وعيد الفصح والعنصرة ويعطّلون أعمالهم في تلك الأعياد مشاركة للمسيحيين، إن مثل هذا المجتمع لا يستغرب أن يستخدم أبناؤه التاريخ والتقويم المسيحيين في كثير من مؤلفاتهم ومعاهداتهم وعقودهم التجارية وغيرها من صور التعامل اليومي.

وقد استخدم الأندلسيون التاريخ الميلادي باليوم والشهر والسنة في معاهدات الصلح التي كانت تبرم بينهم وبين قشتالة أو أراغون أو البرتغال أو الدول المسيحية المجاورة، وكانوا يطلقون على هذا التاريخ صفة «تاريخ الصفر» أو تاريخ العجم أو التاريخ الرومي، أو الحساب الأعجمي، أو تاريخ المسيح.. إلخ.

وأما استخدامهم للتقويم الشمسي بأسماء الشهور الرومية فقد ورد في كتب التاريخ والرحلات والطب والفلاحة والأغذية والطبيخ.

ويبدو أن أسماء الشهور الرومية قد درجت على ألسنة الأندلسيين وكانوا يتعاملون بها لحاجتهم إليها في رصد أوقات الزراعة والفصول والمواسم والأعياد، ولم تختلف صورة كتابتها ونطقها لديهم كثيراً عمّا هو عند الإسبان، إذ كانوا يلفظونها على النحو التالي:

ينير أو يناير

فبرير أو فبراير

مارس أو مارص

إبريل

مايه أو ميه أو ماي

يونيه

يوليه

أغشت أو غشت

شتنبر

أكتبر أو أكتوبر

نونبر أو نونبر أو نوبنبر

دجنبر أو ذجنبر

وقد استمر الأندلسيون الذين عاشوا خارج الأندلس بعد سقوطها في استخدام هذا التقويم كما في رحلة الوزير الغساني.

ولا بد من الإشارة إلى أن ظاهرة استخدام التقويم والتأريخ المسيحيين في المؤلفات والوثائق الأندلسية لم تكن ظاهرة مطردة بل نجدها تكثر في كتاب وتقل في آخر وتختفي تماماً في كتاب ثالث. وتجدر الإشارة كذلك إلى أن استخدام التأريخ والتقويم المسيحيين في كتب التاريخ والرحلات والوثائق تأتي دائماً مقترنة ومسبوقة بالتأريخ الهجري والتقويم القمري، وذلك تأكيداً على الهوية الإسلامية للأندلس. أما في كتب الفلاحة والطب والأغذية فلم يستخدم بها غير التقويم الشمسي.

وقد استخدم الأندلسيون في بعض كتبهم تاريخ الإسكندر إلى جانب التاريخ الميلادي والتاريخ الهجري .

إن عناية الأندلسيين بالتأريخ والتقويم المسيحيين هي نتيجة طبيعية للتنوع الثقافي في المجتمع الأندلسي وللتعامل المباشر للدولة الإسلامية في الأندلس مع جيرانها من الدول المسيحية ، وهي تدل كذلك على النهج الحضاري للسياسة الإسلامية في الأندلس ، فهو نهج يحترم ثقافات العناصر التي يتألف منها المجتمع الأندلسي ويعترف بها ، مثلما يدلّ على تسامح المجتمع الأندلسي وانفتاحه العقلي والثقافي .

وإن كان هناك اعتراض من فقهاء الأندلس على هذه الظاهرة فإنما كان اعتراضهم على مبالغة الأندلسيين في مراقبة حلول شهر ينير وشهر إبريل وشهر يونيه للاحتفال بأعياد المسيحيين ، وهو ما نجده عند محمد ابن وضاح القرطبي وأبي بكر الطرطوشي وأبي القاسم العزفي وسواهم .

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ أربع رسائل من أبي الحسن عني بنشرها وترجمها : Hartwig Derenbourg. في : Me'langes Orientaux Paris. Septembre. 1883.

٢ ـ الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، السخاوي (ت٩٠٢هـ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٣ .

٣ ـ كتاب الأغذية ، ابن خلصون ، حققته وترجمته إلى الفرنسية سوزان جيغاندي ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية/ دمشق ، ١٩٩٦ .

٤ ـ كتاب الأنساب/ ابن عبد الحليم (ق٨هـ) (ضمن كتاب ثلاثة نصوص عن البربر في الغرب الإسلامي) ، دراسة وتحقيق محمد يعلى ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي ، مدريد ١٩٩٦ .

٥ ـ كتاب التأريخ ، عبد الملك بن حبيب (ت٢٣٨هـ/ ٨٥٢م) ، دراسة وتحقيق خورخي أغوادي ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية/ معهد التعاون مع العالم العربي ، مدريد ، ١٩٩١ .

٦ ـ التاريخ والمؤرخون العرب ، دكتور السيد عبد العزيز سالم ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ .

٧ ـ تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار ، محمد بن جبير الأندلسي ، حررها وقدم لها علي أحمد كنعان ، دار السويدي للنشر

والتوزيع/ أبو ظبي ، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت ، ط١ ، ٢٠٠١ .

٨ ـ التعريف بالمصطلح الشريف ، لابن فضل الله العمري ، دراسة وتحقيق الدكتور سمير الدروبي ، منشورات جامعة مؤتة ، الكرك ، ط١ ، ١٩٩٢ .

٩ ـ تقويم قرطبة ، عريب بن سعد ، نشره رينهارت دوزي ، مطبعة بريل ، لايدن ، ١٩٦١ .

١٠ ـ الخطط المقريزية : انظر كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

١١ ـ الدر المنظم في مولد النبي المعظم ، العزفي ، نشره فرناندو دي لاجرانخا ، مجلة الأندلس ، المجلد ٣٤ ، سنة ١٩٦٩ ، ص ١٩ ـ ٣٢ .

١٢ ـ رحلة بنيامين التطيلي ، ترجمه إلى العربية وكتب مقدمته وملاحقه عزرا حداد ، الطبعة الأولى ، المطبعة الشرقية ، بغداد ، ١٩٤٥ .

١٣ ـ رحلة ابن جبير= انظر : تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار .

١٤ ـ رحلة الوزير في افتكاك الأسير ، محمد الغساني الأندلسي ، حررها وقدم لها نوري الجراح ، دار السويدي للنشر والتوزيع/ أبو ظبي ، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٢ .

١٥ ـ الشماريخ في علم التاريخ ، السيوطي (ت ٩١١هـ) ، حققه وخرج أحاديثه محمد بن إبراهيم الشيباني ، الدار السلفية للطباعة والنشر والتوزيع ، الكويت ، ١٣٩٩هـ .
١٦ ـ طبقات الأطباء والحكماء ، ابن جلجل أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي ، تحقيق فؤاد سيد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٥ .
١٧ ـ طبقات الأمم ، صاعد الأندلسي (ت٤٦٢هـ) ، نشره الأب لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩١٢ .
١٨ ـ علم التأريخ ، كب .Gibb. H.A.R ترجمة إبراهيم خورشيد ود . عبد الحميد يونس ، وحسن عثمان ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨١ .
١٩ ـ علم التاريخ عند المسلمين ، فرانز روزنتال ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٣ .
٢٠ ـ فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان ، ابن رزين التجيبي ، حققه وقدم له محمد بن شقرون ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٤ .
٢١ ـ محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨هـ) ، دار صادر ، بيروت .
٢٢ ـ مختصر في الطب ، عبد الملك بن حبيب (ت٢٣٨هـ/ ٨٥٢م) ، تقديم وترجمة وتحقيق : كاميلو آلباريث دي موراليس وفيرناندو

خيرون ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، معهد التعاون مع العالم العربي ، مدريد ١٩٩٢ .

٢٣ ـ المختصر في علم التاريخ ، الكافيجي ، (منشور ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لفرانز روزنتال ص ٣١٧) .

٢٤ ـ المقتبس (الجزء الخامس) ، ابن حيان ، نشره : ب . شالميتا ، ف . كورينطي ، م . صبح ، المعهد الإسباني العربي للثقافة ، مدريد ، وكلية الآداب بالرباط ، ١٩٧٩ .

٢٥ ـ المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، ابن حيان القرطبي (٣٧٧ ـ ٤٦٩هـ) ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجّي ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٥ .

٢٦ ـ المقتبس من أنباء الأندلس ، ابن حيان القرطبي ، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور محمود علي مكي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٢٧ ـ المقنع في الفلاحة ، ابن حجّاج الإشبيلي ، تحقيق صلاح جرار وجاسر أبو صفية ، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني ، عمّان ، ١٩٨٢ .

٢٨ ـ كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، المقريزي (ت ٨٤٥هـ) ، دار صادر ، بيروت ، (طبعة بالأوفست) .

٢٩ ـ كتاب الوافي بالوفيات ، صلاح الدين الصفدي ، الجزء الأول ، باعتناء هلموت ريتر ، دار النشر فرانز شتاينر/ فيسبادن ، ١٩٨١ .

٣٠ ـ الوثائق العربية في أرشيف كاتدرائية وشقه ، نشرها وترجمها : Jacinto Bosch Vila' في مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد المجلد ٥ العددان١ ـ ٢ ، مدريد ١٩٥٧ .

3 ـ وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ، حققه وقدم له : لويس سيكو دي لوثينا ، منشورات معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٦١ .

32. Los Documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon. Editados y Traducidos por: Maximiliano A. Alarcon y Santon, Ramon Garcia de Linares. Madrid 1940.

33. Una Cronica Anonima de Abd Al- Rahman Al-Nasir, Editada por primera vez y Traducida, con Introduccion, Notas E Indices, Por- E. Levi - Provencal Y Emillio Garcia Gomez, Consejo Superior de Investigaciones Cientificas (Instituto Miguel Asin) Madrid Y Granada 1950.

ملحق

من كتاب أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب

ذكر التعريف بما أمكن

من ملوك النصارى بالأندلس على الاختصار*

ولما كان هذا الجزء مخصوصاً بأخبار الأندلس ، وكان كثيراً ما يمر فيه ذكر ملوك قشتالة ، كان من كماله أن نلمع بنُبذةٍ من ملوكهم ، إذ لا يخلو الزمان ممن يتشوف لذلك ، لا سيما الملوك ؛ فهي أبداً لأخبار الملوك متطلعة ، ولسماع أنبائها متشوفة ، وقد كنت طلبتُ شيئاً من ذلك من مظنته ، وهو الحكيم الشهير ، طبيب دار قشتالة وأستاذ علمائها ، يوسف بن وقار الإسرائيلي الطليطلي ، لما وصل إلينا في غرض الرياسة عن سلطانه ، فقيَّد لي في ذلك تقييداً أَنْقُلُ منه بلفظه أو بمعناه ما أمكن ، وأستدرك ما أغفل ، إذ ليس بقادح في الغرض .

قال الحكيم : سألتَ أعزَّك الله وأدام كرامتك أن أُثبت لك ما تحقق عندي من التواريخ التي وقع فيها نسب ملك قشتالة وتفرع ملوكهم فأُثبت لك ذلك مما استخرجته من الكتاب الذي أَمر بعمله الملك الأعظم دون الفنش قصدت أن يكون ذلك عندك بأصل فنقول :

ذكر في التأريخ المذكور أنَّ الأرض المسمَّاة الآن قرِّيون ، وفي الزمان القديم قانطابرية كانت بأيدي ناس عظماء يسمون دوقيش ؛

* أعمال الأعلام ٣٢٢ ـ ٣٣٨ .

ونشأ بينهم نزاعٌ وخلافٌ أوجب فراق أحد أولئك الرؤساء عنها ، واسمه بِلايُه بن الدوق فافيلة ؛ وسكن بأرْض أشطوريش ، وهي بين أرض ليون وغليسية . فلما جازت العرب إلى الأندلس على عهد الوليد بن عبد الملك ، في سنة ٩٢من الهجرة ، وفتح الأرض طارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، ثم موسى بعده ، واستولى المسلمون على أكثر بلاد الأندلس ، واتصل الفتح بأرض أشطوريش ، حيث كان بِلايُه المتقدم الذكر ، قام بلايه لحماية الأرض ؛ واجتمع إليه طائفة غير كثيرة العدد من الشجعان وأبطال الرجال ؛ فحمى جهة أشطوريش ، ودافع عنها المسلمين . وعمَّتْ مُدافعتُه وحمايتُه قطرَ ليون وقطر برتقال ، واضطلع بذلك ، وردَّ عنه العرب ؛ وقد أنس بقتالهم وكثرت مواقفاته إياهم . فاتفق أهل تلك الجهات على تقديمه ملكاً بها لاستحقاقه ذلك بنفسه وبيته ، وإن كان غريباً عن أرضه ؛ فكان ذلك سنة ٧٥٧ لتأريخ الصُّفْر وبموافقة ٩٩للهجرة . وهو أول من تسمى بهذه الأرض ملكاً بعد دخول العرب . ودام ملكه ثلاث عشرة سنة .

ثم مات وملكَ بعده ابنٌ له يسمى فافيلَة ؛ وتمادى مُلْكه عامين ؛ ثمَّ قتله دبٌّ تعرَّض له في الصيد ، ولم يحذره ؛ فأتى عليه . ووليَ المُلْكَ بعده صِهْرٌ له من بيته وأرضه اسمه دون ألفُنْش بن الدوق دون بِطرُه ، من أهل قانطابرية ، كان قد وصل من تلك الأرض لزيارة أمّ بِلايه ، وأعانته وخدمته ؛ فأكرمه بِلايُه ، وزوَّجه ابنته ، فلما هلك ، لم يوجد أولى به منه ؛ فملك في سنة ٧٧٢ ، بموافقة ١١٤ للهجرة . واتصلت مدته تسع عشرة

سنة ؛ وكان يُسمى القاطوليقُه لمعرفته بأُصول شريعة الروم المسمى علمها عندهم قاطوليقي .

ولما هلك ، ولي بعده ابنه المسمى فُرويلَه في سنة ٧٩١ للصفر ، وبموافقة ١٣٣ للهجرة ؛ وفي عهده دخل الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وعقدت له البيعة بالأندلس تاسع ذي الحجة من سنة ١٣٨ .

ولما هلك فُرويله ملك بعده أخوه أُيريلُيُهْ ، واستولى على أرض أشطوريش التي منها أصله وأرض غليسية وأرض برتقال وبعض ليون . وكان ملكاً كبيراً ؛ وكانت ولايتُه سنة ٨٠٠ للصفر ، بموافقة ١٤٨ للهجرة ، ومُدَّته ست سنين . ثمَّ هلك . وولي بعده شِيلُه أخوهُ ثماني سنين . ثمَّ ولي بعده أخوه دون الفنش بن فرويله ، وتسمى قاشْطُه (ومعناه الملك الصالح) لعفافٍ وصلاحٍ كان عليه عندهم ؛ واتَّصل ملكُه إِحدى وأربعين سنة ؛ وكان ابتداءُ أمره سنة ٨١٨ للصفر ؛ وثار عليه عمٌّ له ، ابن جارية غير مَمْهورة ، اسمه موريغاطُهْ ؛ فخلعه وملك بعده خمس سنين . ثمَّ ولي بعد هذا الخالع قريبٌ له تغلَّب عليه اسمه بَرْمُودُهْ ، كان أَوَّلَ أَمْرِه قِساً أي عالماً فقيهاً في دينهم ؛ وملك ست سنين . ثم عاد الأمر إلى المخلوع أَلْفنش بن فرويله مُدَّةً ، إلى تمام الإِحدى والأربعين سنة المذكورة . ثمَّ ملك بعده ؛ لما هلك ، رميرُهْ بن دون ألفنش القاطوليقُه ، المتقدم الذكر قبل هذا ؛ اختياراً من الناس ، وذلك سنة ٨٦٥ للصفر . ثمَّ ولي بعده ابنه أردونيُهْ سنة ٨٦٥ ؛ وكانت مدته عشر سنين . ثم ملك بعده ابنه

ألفنش بن أردونيه ؛ وتسمى ماغْنُهْ ، أي الملك الكبير ؛ وكانت مدته ستاً وأربعين سنة ؛ وولي صغير السِّنِّ ؛ وعظم مُلكُه واتَّسعت مملكتُه ؛ وهو الذي نقل دارَ مُلْكِ أَبيه إلى ليون ، وتسمَّى مَلِكَ لِيُون . وكان ابتداءُ مُلْكِه سنة ٨٧٥ ، بموافقة ٢٤٨ للهجرة .

ثمَّ ولي بعده ابنه دون غَرْسِيَهْ ؛ وكان ابتداءُ ملكه سنة ٩٢٤ للصفر ، بموافقة سنة ٢٩٧ للهجرة ؛ ومدته ثماني سنين . ثم ملك بعده أخوه فُرويلَه سنة ٩٣٢ ، بموافقة ٣٠٥ للهجرة ؛ وكانت مدته سنة واحدة وشهرين ؛ وأصابه مرض الجذام ؛ فلم يتأتَّ معه قيامُه بالملك . ولهذا العهد نشأ بجهة ليون ، التي كان حكم قشتالة من قبل ملكها ، شتاتٌ واختلافٌ أوجب اقتطاع البلاد القشتالية عن مُلْكِ ليون ، فقدّم أهلها على أنفسهم رجلين من ا لقضاة ، حسبما جرى عليه العمل ببلاد المسلمين بالأندلس على عهد ملوك الطوائف ؛ وتغلب القضاة ، وسالموا ملك ليون على أن يخدموه بثلاثمائة فارس متى احتاج لذلك ؛ فقبل ذلك منهم ، وقنع بطاعتهم . وكان أحدهما يسمى نونيُهْ رجُوره ، والآخر لايِنْ قالبُهْ . ومن نونيه رجوره تناسل ملوك قشتالة وليون الذين استقر الملك في عقبهم على عهده .

رجع الحديث لملوك ليون . ثمَّ ملك بعد فرويلَه دون ألفنش بن دون أُردونيُهْ خمس سنين وثمانية أشهر ؛ ثم زهد ، وترهب ، وأصابه وسواس ؛ فتخلى بعد ذلك عن الملك لأخيه رَمِيُرهْ سنة ٩٣٣ ؛ وكانت مدة ملكه عشرين سنة . وفي السنة الأولى من مدته ، قام بقشتالة داعياً

إلى نفسه القُمْز دون فرّان غُنْصالِسْ ، حفيد نونيُهْ رجوره أحد القاضيين المذكورين قبل .

رجعٌ لحديث ليون ، ثمَّ ملك بعد رَميره ، أُردونيُهْ ابنه سنة ٩٥٨ بموافقة ٣٣١ للهجرة ؛ فكانت مدته خمس سنين وستة أشهر . ثم ثار عليه وخلعه أخوه دون شانْجُه سنة ٩٦٣ للصفر ، بموافقة ٣٣٦ للهجرة ؛ وكانت مدته اثنتي عشرة سنة .

وفي مدة شانجُهْ هذا الثائر بأخيه ، خرجت قشتالة عن حكم صاحب ليون جُملةً ؛ واستقل القُمْز المذكور فرّان غُنْصالِس بها ؛ ولم يبق فيها للملك ليون طاعةٌ ، وكان سبب ذلك أن القمز دون فران غنصالس حدثت بينه وبين شانجه سلطان نبارَهْ مفاتنةٌ ؛ فغلبه القمز وقتله . وملك بعده نباره ابنه دون غرسيه ؛ وكانت بنت ملك نباره زوجاً لدون شانجه صاحب ليون ؛ وكانت تطالب القمز بعداوة قتله لأبيها ، وهي مع ذلك تخادعه وتريه الصداقة ؛ وكانت تعده بتزوُّج بنت أخيها غرسيه صاحب نباره ولد قتيله ، لتزول بينهم العداوة رأساً ؛ وداخلها زوجها ملك ليون في استدعائه لحضور رأيٍ كبيرٍ يسمونه القُرْتِ ، تحضر فيه الملوك والأمراء لتقدير المصالحة الوقتية والأبدية ؛ ففعل ذلك ؛ ووعد القمز بالوصول ؛ فكتبت المرأة لأخيها صاحب نبارَهْ أن يحاول أمره في طريقه ، ويؤنِّسه ، ويطلب لقاءه لعله يتأتى فيه ثأره . فلما قضى القمز حاجته من حضور القُرْتِ ، ورجع قافلاً إلى بُرْغُش بلده من عمالة قشتالة ، طلب منه صاحب نباره الاجتماع ؛ فوقع الاتفاق على أن يستصحب كل واحد منهما سبعة

من الفرسان بدون سلاح. وجاء القمز بحال طمأنينة على بغلة، وفرسانه السبعة بين يديه، حتى إذا قرب من مكان الوعد، رأى صاحب نباره في خمسةٍ وثلاثين فارساً يحملون السلاح؛ فأيقن بالشر، وأعجلوه عن التحول إلى الفرس. فدخل جنة كانت بالموضع واعتصم ببرج كان هنالك؛ ودافَعَ هو وناسُه عن أنفسُهم؛ فقاتله صاحب نبارة قتالاً شديداً بقية اليوم إلى نصف الليل. ثم اقتضى أمانه على أن ينزل آمناً في نفسه من القتل؛ ونزل؛ فاحتمله صاحِبُ نبارة إلى نَاجِرة؛ فأكبله، وبقي عنده سنة ونصف سنةٍ. ثم رغب منه سراح فرسانه إلى قشتالة فسرحهم.

واتفق أن حل بالموضع قمزٌ معروفٌ من أرضٍ أخرى؛ فطلب أن يزور القُمْزَ الأسير، وأشفق لحاله، ووعده المشاركة الجميلة في أمره؛ وطلب زيارة بنت صاحب نبارة، وهي التي كان القمز الأسير وعد بتزوجها، وعقد من ذلك حديث حنت له بسببه؛ فأخذ معها في شأنه، وضمن لها، إن خلصته من أسره، أنه يحملها معه إلى قشتالة، ويتزوجها، ويعرف لها قدر إحسانها إليه.

وللنصارى في أثناءِ هذا أحاديثُ وأَشعارٌ ومَعَانٍ ترجع إلى شطارة العُشَّاق وارتكابهم الأخطار. فتم ما ذهبت إليه من ذلك، وذهب بها إلى قشتالة وتزوجها، وعاد إلى ملكه، ووالى الحروب على صاحب نبارة، إلى أنْ أَسَرَه وانتصف منه؛ وأَقام في أَسْره ثلاثة أشْهر، ثم تشفَّعَت فيه بِنْتُهُ؛ فأطلقه طَوْعاً. ثمَّ طال الأَمَدُ، واستدعى صاحب لِيُون القُمْزَ مرةً أُخرى لحضور قُرْتٍ آخر؛ فوصل إليه، وهذا على

عهد المنصور محمد بن أبي عامِر. وهم كلهم بين موافقة عن بلادهم لابن أبي عامِر وبين تقية وسلمٍ.

وقد كان القمز غُنْصَلِس صاحب قَشْتالة فسد ما بينه وبين صاحب لِيون ؛ فقبض عليه وأسرَه سنة ٩٧١. ودبَّرت أيضاً زوجُه بنت مَلِك نَبارَة التي خلصته من الأسر الأوَّل الحيلة في خلاصه من هذه ؛ فسَرَتْ من بُرْغُش في خمسمائة فارسٍ مختارةٍ ، تطوي المراحل ليلاً ، إلى أن كانت على ثلاثة فراسخ من ليون ؛ وتركت الفرسان في غياضٍ وجبالٍ ، وأقبلت في زيٍّ راهبةٍ تقصد الحجَّ لشَنْت ياقُب. وأكرم السلطانُ صاحبُ ليون قدومها ، وتبرك بها ؛ فسألت منه أن تزورَ القمز أسيره ، وتُسافِرَ من الغَدِ إلى الحجِّ ؛ فأذن لها في ذلك ؛ فأطالت معه الحديث. ثمَّ أَمَرَته يخرج في زيها مع أَحد خدَمتها يخاطب الحَرَسَةَ عنها ؛ وبقيت هي راقدةً في سرير القُمْز كأنه لم يبرح. فلما حصل في ظاهر البلد ، وجد الخيل تنتظره بكلِّ فَرْسخٍ ، إلى أن وصل بجملةِ خيله. ولما تعرَّفَ صاحب ليون ذلك ، شقَّ عليه ؛ ثمَّ لم يَسَعْه إلاَّ أن وجه إليه زوجه هذه مُفَرِّجة الشدائد. وكان هذا القُمْزُ فارساً كبيراً ، لا نظير له ؛ فشمر بعد ذلك في حَرْب صاحب لِيُون ، وأضاقه ، وغنم أرضه ، إلى أن اصطلحا على أداءِ حقوقٍ كانت للقُمز قبله ، والتسليم فيما بيده ؛ فاستقلَّ القمز بأرض قشتالة من حينئذٍ.

رجع الحديث إلى ملك ليون. ثم توفي دون شانجه ملك ليون. وولي بعده ولده رميرُهْ ، وهو صبي صغيرٌ من خمس سنين ، وذلك في سنة ٩٧٥ ؛ وكانت مدته خمساً وعشرين سنة. وتولت تدبير ملكه

والدته دُونَـهْ طِـرِّيجَةَ وعمـته دُونَـهْ إلـبيرة. وهلـك القـند دون فـرّان غنصـالس أيضـاً في زمانه سنة ٩٧٨ ؛ فكانت مُدة القند فران غنصالس نحـواً مـن تسـع وثلاثـين سـنة. ثمَّ ثار عليه في غليسية دون بَرْمودُهْ بن دون أردونـيُهْ وتملكها. ولما مات دون رميرُهْ الذي تقدم صبياً، ودبرته أمـه وعمته، خلص الملك لدون برمودُهْ بن دون أُردونُيهْ ؛ وكان مبتدأ ملكـه سنة ١٠٠٠ للصفر، ومدة ملكه سبع عشرة سنة. وعلى برمودُهْ هـذا ألحَّ ابن أبي عامر بالغزوات ؛ وفي مدته ومدة من قبله ومن بعده قريباً منه، كان سوق ذلك الجهاد المحظوظ.

ثـمَّ ملـك بعد دُون بَرموده ابنه دون ألفونش سنة ١٠١٧ للصفر، وكانـت مدتـه سـبعاً وعشرين سنة. وملك بعده دون برموده ولده سنة ١٠٤٤ لـتأريخ الصـفر ؛ وكانـت مدتـه عشر سنين. وكان دون برموده هـذا قـد تـزوج بنـت قـند قشـتالة واسمها طِرِّيجَهْ ؛ ويأتي خبره بعد. وعند هلاك دون برموده، انتقل الملك لنسل القُمْز دون فران غنصالس حفيد القاضي الأول نونيه رجوره المتقدم الذكر.

ولمـا انـتقل ملـك لـيون إلى حفـيد نونـيه رجوره القاضي بقشتالة، بسـبب البنـت الـتي كانـت زوجـاً لبرموده ملك ليون وكونه لم يعقب، فـنذكر عقـبه مـن هـذا الحـد، وهو الذي صار أصلاً وانقطع ما قبله: فـنقول: تـولى القاضي الأول نونيه رجوره سنة واحدة، وهي سنة ٧٣٢ ؛ ثـم هلـك ؛ فولي بعده ابنه غنصالس نُونِس ؛ ثم تولى بعده ابنه القمز دون فـران غنصـالس، المـتقدم الذكـر، تسـعاً وثلاثين سنة، ثم تولى بعـده القمـز دون غرسـيه فَـرانـدِس ؛ ثـم تـولى بعده ابنه دون شانجُهْ.

وكان لدون شانجه ابنتان إحداهما تسمى دُونَهْ طرِّيجَه ، تزوجت دون بَرْمُودُه صاحب ليون ، والثانية تسمّى دونه إلبيرة ، تزوجت شانجه ملك نبارة ، وولدت منه ابنين كبيرهما دون غرسيه ملك نباره بعد أبيه ، والثاني دون فرانده الذي هو أول من تسمى ملك قشتالة . وكان لدون شانجه ولد من عشيقة غير ممهورة اسمه دون رَميرُهْ ، مَلَكَ أرض أرغون . فمن نسل دون فرانده هم ملوك قشتالة إلى الآن ؛ ومن نسل رميره هم ملوك أرغون .

فلما توفي دون شانجه قمز قشتالة ، ولي بعده دون غرسيه ابنه ؛ وكان ضعيف العقل ؛ اقتضى نظره التوجه إلى ليون ليتزوج بها أخت ملكها برمودُهْ ، وحمل معه صهره دون شانجه ملك نبارة ؛ فنزل صاحب نبارة بفحص ليون ، ونزل دون غرسية بداخل البلد ، وحدث بالبلد فتنةٌ وهرجٌ قتل فيه . وقيل إن قتله بإشارة سلطان ليون . وقامت الحرب لأجل ذلك بين صاحب ليون وبين صاحب نبارة ؛ وقد انضافت إلى ملكه بعد قتل صهره قشتالة سنة ١٠٦٦ للصفر ؛ وكانت نحواً من ست عشرة سنة ؛ وقتل طائفةً من الزعماء اتهمت بالتدبير على صهره ؛ واستضاف أرضهم إلى أرض قشتالة ؛ وهي المسماة ببلد وليد ، وشَنْطِمنقَشْ ، وما إليها ؛ فضخم ملكه . ثم تصالح مع صاحب ليون على أن يتزوج ابنه دون فرانده مع أخته ، وأن يسمى ملك قشتالة . وأعطاه أبوه جزءاً كبيراً من أرض نبارة ، وهي ناجرة وما إليها . فلما توفي أبوه ، تحرك ملك ليون لقتاله ، وأصرخ المذكور أخاه القائم بعد أبيه بملك نبارة ؛ فغلبا على صاحب ليون ، وهزماه ؛

وقتل في الحرب . فانصرف ملك ليون لدون فرانده بن دون شانجه المتقدم الذكر .

ثم قال الشيخ الحكيم : وإذ بلغنا إلى هذا الحد ، فلنتذكر الآن ملوك قشتالة وليون ، ونجعل إلى ذات اليمين عدد الأولاد من عقب بِلايُهْ ، وإلى ذات اليسار عددهم من عقب فرّاندُه هذا المذكور . فنقول :

ملك دون فرانده ولد صاحب نباره وقشتالة وليون أربعين سنة وستة أشهر ؛ وكان ابتداء ملكه سنة ١٠٥٣ للصفر ؛ وقسم ملكه على أولاده الثلاثة ؛ فأعطى ملك قشتالة لدون شانجه ولده الأكبر ، وأعطى ملك ليون لدون ألفنش ، وأعطى ملك غليسية وبرتقال لدون غرسية . فلما توفي دون فرانده ، ثار دون شانجه على أخويه ، وأخذ منهما الملك ، وأسرهما . فأما دون غرسيه ، فقيده بالحديد ، وسجنه في حصن ناجرة ؛ فبقي بها نحوا من ثماني عشرة سنة . وأما أخوه دون ألفنش ، فجعله مونجاً في موضع عبادة على رسم الزهاد ، مرقباً عليه بموضع يقال له سَفَقُنْد ؛ واحتال ، فهرب منه ، ولحق بطليطلة ، وبها يومئذ المأمون بن ذي النون ؛ فآواه ، وأجاره ، وسكن عنده ؛ وسكناه بطليطلة واطلاعه على عوراتها هو الذي أوجب تملك النصارى بها ؛ وأقام عند ابن ذي النون إلى أن قتل أخوه شانجه بتدبير أخته أُرّاكة ، إذ داخلت في قتله بعض فرسانه ، وقد خرج يتصيد ، فطارد صيداً ؛ وذلك الفارس يقفوه ؛ فلما انفرد به طعنه برمح كان له ، وقتله ؛ وركض ؛ فلحق بالأخت المذكورة بمدينة سَمُّورة ؛ فاستجار بها . ووجه

عنه النصارى إلى طليطلة ؛ فولَّوْه عوضاً منه ، وذلك سنة ١١٠١ . ولما ملك ، أنفذ الأمر بقتل قاتل أخيه ، وقال ما معناه : «عمل جيد وعادة سوء!» .

ثم توفي في شهر يونيه سنة ١١٤٧ ؛ فلم يترك ولداً ، فولي الملك حفيده ولد ولده فرذِلَنْدُ .

وقال الحكيم فيه : هذا الحفيد المسمى بألفنش هو الذي تملك طليطلة وما إليها . وكان ابتداء ملكه سنة ١١٤٧ للصفر . وكانت مدته ستاً وخمسين سنة . قال : وهو أول من تسمى إِنْبِرَدُورْ ؛ ومعناه سلطان السلاطين ؛ إذ مهد جيرانه ، وافتتح دار ملك النصارى القوط طليطلة ، واستخدم ملوك المسلمين بالأندلس .

قال ابن وقار : كان له سبعة من الملوك يخدمونه ، ولا يعصون أمره بين مسلمين ونصارى . وفي مدته خرجت جهة برتقال عن حكم قشتالة في أول أمره ، إذ كان صغيراً عند الولاية ؛ وكان جده دون ألفنش قد زوج بنتاً له مع أحد قرابته اسمه أنريقِ ، وأعطاه برتقال ، وسماه دوقاً . ثم ، لما هلك وولي بعده برتقالَ ابنُه ، توجه إلى البابا ؛ فولاه برتقال ، وثبتها له ؛ فلم يقلّده ألفنش صاحب قشتالة وليون على أن التهى به . فمن نسله ملوك برتقال إلى الآن ، حسبما يأتي إن شاء الله .

قلتُ : وهذا ألفنش المعمر هو الذي طغى واستحوذ على ملوك المسلمين ، وضرب بين أمراء الطوائف ، إلى أن قمعه الله بلمتونة ،

وهـزمه هزيمة الزلاقة على يد يوسف بن تاشفين ، حسبما يأتي إن شاء الله .

قـال ابـن وَقَـار فيه : ثم قسم ملكه قسمين ؛ فأعطى ملك قشتالة ولـده شـانجه ؛ وتسمى باسم الملك في حياة أبيه خمس سنين ؛ وأعطى ملـك لـيون وغليسـية ولـده دون فرانده . ثم استمرت أيام دون شانجه بعـد مـوت أبـيه عاماً واحداً . ثمَّ توفِّي سنة ١١٩٨ ؛ وترك ابناً صغيراً مـن أَربـع سـنين اسمُـهُ دُون ألفـنش ؛ فملك بعده ثلاثاً وخمسين سنة . وهذا الصبيُّ المعمر هو الذي جرت عليه الهزيمة المعروفة بالأرك على يد يعقـوب المنصـور بـن يوسـف بن عبد المؤمن بن علي ـ رحمه الله ـ سنة ١٢٣٣ للصُّفْر ، وفي شـهر أغُشْـت . ثـم دالـت له الأيام ؛ فكانت له عـلى الناصـر بـن المنصـور هزيمة العِقاب ، التي لم تستقل العثرة بعدها بـالأندلس ؛ وذلـك ثامن عشر من يوليه من سنة ١٢٥٠ للصفر . وكان هـذا الملـك الـروميّ بعـيد الهمـة ؛ لـبس مـن بعـد ا لهـزيمة عليه ثياب الحـزن ، وأقسـم أن لا يزيـلها حـتى يـأخذ ثـأره . فـلما أتيح له الظفر بالناصـر بـن المنصـور ، رغـب مـنه النصارى أن يرفع الحزن ؛ فقال : «وكـيف وأنـا لم أنتصـف ؛ إنمـا غلبت ابن من غلبني! هضيمتي في عنق الابن ، وهضيمة الأب في عنقي! لم تزلها عني غلبتي لغيره!» .

وكانـت له ابنة اسمها بَرَنْقالَة ، زوجها ابن عمه دون ألفنش ملك لـيون ؛ فولـدت لـه ولدين أكبرهما فراندُه ، وأصغرهما دون ألفنش ، فملـك فـرانده بعـده قشتالة وليون . وكان ألفنش إفانت مُلِينة ؛ ومعنى الإفانـت ولـد السـلطان . فـلما توفي ألفنش ولي ابنه دون إنريقِ ثلاث

سنين ، أولها سنة ١٢٥٠ . ثم هلك بحجر أصاب دماغة في لعب من الصبيان عام ١٢٥٣ ؛ فرجع المُلْكُ لأخته ملكة ليون ؛ فأعطته ولدها فرانده . فهذا فرانده ملك قشتالة من أمه وملك ليون من أبيه ؛ وهو الذي تملك قرطبة وإشبيلية وجيان ومرسية . وحسبك بهذا الظهور الذي أقام البرهان على أن الدنيا لا تزن عند الله شيئاً! فكم اشتملت عليه تلك المدائن العظيمة من بلاد وعمالا ت ومنابر ومساجد وأعيان وفرسان وعلماء وأعلام ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾! وهو المسمى بالأحول ؛ وعلى عهده كان قيام ابن هود وابن نصر وغيرهم ممن تقدم ذكره . وهلك بعد استخلاص إشبيلية ؛ ولذلك كانت كهنة للروم ترمز ، فتقول : «الأسْوَدُ الأحول إذا أدخل يده في الزيت هلك!» يعنون إذا ملك إشبيلية معدن الزيت . وكانت مدته خمساً وثلاثين سنة ، وابتداء ملكه من لدن ١٢٦٥ للصفر .

وولي بعده ولده دون ألفنش سنة ١٢٩٠ للصفر ؛ وكانت مدته ثلاثاً وثلاثين سنة وستّة أشهر ؛ وعدم الولد لأول عمره ، وخاف من أن يطرقه الموت ؛ فيخرج الملك عن عقبه ؛ فجعل الملك بعده لحفيده من بِنْتِهِ ذي العَرْف . ثم ولد له بعد هذا ولده السلطان دون جانْجُهْ ، فلما كبر دون جانْجُهْ ، عظم عليه انفراد ذي العَرْف بالملك دونه ولم يسع الأبَ حلُّه ؛ فشمر عن مخالفته لأبيه واستخلاص الملك بالسيف ؛ فخلع الأبَ ، وضيق عليه ، إلى ان لم يبق بيده إلا قرطبة وأحوازها ؛ واستنصر عليه بالمولى السلطان المُرابِط أَبي يوسف بن عبد الحق ، ولاذ به ، ورهن عنده تاجه ذخيرة النصارى المستقرة بدار مَرِين ؛ ولقيه

بصخرة عبَّاد من أحواز رندة ؛ فسلم عليه . ويقال إن أمير المسلمين لما فرغ من ذلك ، طلب بلسان الزناتيه الماء ؛ فغسل به يده من قبلة ألفنش أو مصافحته .

والشيء يذكر بالشيء . فأثبت حكاية اتفقت لي بسبب ذلك ، أستدعي بها الدعاء ممّن يحسن عنده موقعها . وهي أن اليهودي الحكيم ابن زرزار ، على عهد ملك النصارى حفيد هذا ألفنش المذكور ، وصل إلينا في حوائجه ، ودخل إلي بدار سكناي مجاور القصر السلطاني بحمراء غرناطة ، وعندي القاضي اليوم بغرناطة وغيره من أهل الدولة ، وبيده كتاب من سلطان المغرب محمد بن أبي عبد الرحمان ابن السلطان الكبير المولى أبي الحسن . وكان محمدٌ هذا قد فرَّ إلى صاحب قشتالة ، واستدعى مِنْ قِبَلِهِ الْمُلْكَ ؛ فسهّل له ذلك ، وشرط عليه ما شاءَ ؛ وربما وصله خطابه بما لم يقنعه في إطرائه ؛ فقال لي : «مولاي السلطان دون بطره يسلم عليك ، ويقول لك : انظر مخاطبة هذا الشخص! وكان بالأمس كلباً من كلاب بابه ، حتى ترى خسارة الكرامة فيه!» فأخذت الكتاب من يده ، وقرأته ، وقلت له : «أبلغه عني أن هذا الكلام ما جرّك إليه إلا خلوّ بابك من الشيوخ الذين يعرّفونك بالكلاب وبالأسود ، وبمن تُغْسَلُ الأيدي منهم إذا قبلوها ؛ فتعلم مَنْ الكلبُ الذي تُغْسَلُ اليد منه ومن لا . وإنَّ جدَّ هذا الولد هو الذي قبل جدُّك يدَهُ ، واستدعى الماءَ لغسل يده منه بمحضر النصارى والمسلمين ؛ ونسبة الجد إلى الجد كنسبة الحفيد إلى الحفيد! وكونه لجأ إلى بلادك ليس بعارٍ عليه . وإنك مُعَرَّضٌ إلى اللجإ إليه ؛

فيكافيك بأضعاف ما عاملته به!» فقام أبو الحسن المستقضى يبكي ، ويقبل يدي ، ويصفني بولي الله ، وكذلك من حضرني . وتوجه إلى المغرب رسولاً ؛ فقص على بني مرين خبر ما شاهده مني وسمعه ؛ وبالحضرة اليوم ممن تلقّى منه ذلك كثيرٌ ، جعل الله ذلك خالصاً لوجهه!

رجع الحديث . ثم هلك ألفنش . وولي الأمر بعده دون شانجه ابنُهُ سنة ١٣٢٢ للصفر ؛ وكانت مدته اثنتي عشرة سنة ؛ وهو الذي افتتح طريف ، ونازل الجزيرة ؛ وكانت الوقيعة بأسطوله . ثم هلك ، وولي بعده فرانده ، وهو صبي صغير دون عشر سنين ، في الثامن والعشرين لإبريل العجمي من سنة ١٣٣٣ للصفر . وهو الذي نازل الجزيرة ، وأخذ جبل الفتح ؛ وكانت مدته سبع عشرة سنة . ولما وقعت الفتنة بين السلطان نصر وبين ابن عمه بمالقة ، نازل القبذاق وهلك عليها . وولي بعده ابنه دون ألفنش في سابع شتنبر عام ١٣٥٠ ، وسنة ثلاثة عشر شهراً ؛ وتقدم لتربيته والنيابة عليه عمه دون بطره ؛ وهو الذي وقعت عليه وقيعة المرج بظاهر غرناطة ؛ وسيقت جثته إلى البلد ، وجعلت في صندوق خشب ببعض الأبراج ، عن يمين الصاعد إلى الحمراء لصق باب يعقوب ؛ وصارت الصبيان يرمون ذلك التابوت بالحجارة إلى أن غطّتهُ ، واحتيج إلى بناء البرج ؛ وأنا نائب عن السلطان إذ ذاك . واضطر إلى الكشف عن التابوت ؛ فألفي قد عفن ؛ واستؤذنت فيما يفعل بتلك الرمة ؛ فأمرت بأن يتخذ لها تابوت جديد ، وينقلها نصارى السلطان المستخدمون في المباني حسبما يريده

أساقفهم . فلما أخرجت الرمة لتنقل إلى التابوت ، ألفي بين الفقارات منها سنان صغار الجرم قد أثبتته فيها يدٌ مجاهدةٌ يوم الوقيعة ، كانت سبباً للفتح . فاستعبرت رقة ، وقبلت ذلك السلاح الكريم ، وسألت الله بركة مَعْلَمٍ بها ، وأمرت برده بمكان بنائه ، وأعدت الصندوق لحاله ، لما رأيت في ذلك من التذكير بأيام الله ونكاية الكفار إذا مروا به ، وتخليد الفخر للدين ما شاء الله . والله ينفع بالمقاصد الخالصة لوجهه الكريم !

ثم كبر ألفنش هذا ؛ فاستولى على ثغر وُبِرَه عند فتنة الغزاة بأنْدَرَشْ ؛ ثم على بلد أطيبة ، والحفرة المنسوبة إليها . وأوقع بالمسلمين الوقيعة العظمى بطريف . ثم نال قلعة يحصب على ستة فراسخ من الحضرة وتملكها . ثم أملى الله له بشق عصى الأمة ، وما نال أمير المسلمين المرجو لنصرها من التمحيص بالقيروان ، واستبداد ولده عليه بملك المغرب ؛ فانتهز الفرصة في الأندلس ، ليأس أهلها من نصرة الإسلام ؛ فتحرك إلى إشبيلية ، ونازل جبل الفتح ، وشد حصاره إلى أن نزل اللطف الخفي بهلاكه عليه ، بعدما بنى وعزم على السكنى في شهر مارس سنة ١٣٥٠ للصفر ، بموافقة محرم من عام ٧٥١ ؛ فكانت مدة ملكه نحواً من تسع وثلاثين سنة .

وتولى الأمر بعده ولده دون بِطْرُه . وشغله الله عن المسلمين بحروب أهل ملته ؛ فانحنى على سلطان برجلونه إلى أن انتزع كثيراً من بلاده : كدانية وقلعة أيوب ، وأريولة ، وغيرها ؛ ونازعه أخوه الملك ، وهو إنريقِ ، ابن أبيه من عشيقة أولدها ولداً ، جملةً لما شاء الله من

شتات كلمتهم . وكرهت بطرة النصرانية لكثر الكلف واتصال الحركات والاستعانة بالمسلمين ؛ فخُلِعَ وفرَّ إلى بلد أربونة من عمل صاحب الأغليطرة ، بعد أن انتهبت داره بإشبيلية ، وعاثت أيدي الرعية في خزائنه بمرأى من عينه . واستولى على البلاد أخوه إنريق ، فلحق بإشبيلية مستدعى من أهلها ؛ وأهطعت الأرض إلى طاعته . وأعان دون بطره ملك الجهة التي قصد ، وشمر لنصره ، وتحرك في جمع كثيف من أهل تلك الأرض ؛ وشأنهم عجيب في السلاح والقوة ، ووفور العدة ، والقتال من بعد الاسترحال ، ولزوم الأرض على الكريهة . وكان اللقاء بين الطائفتين بناجرة من أحواز نبارة ؛ فوقعت على إنريق الهزيمة المستأصلة ، وخلص إلى بعض الملوك المجاورة في شرذمة قليلة ؛ وتلف كباره وخلصانه وعدده وأمواله .

وعاد أخوه بِطْرُه إلى ملكه . ولم ينشب أن فرض على البلاد مَغْرَماً يقضي به دون الطائفة التي أصرخته ، إذ كان ذلك عن التزام أموال ؛ فخالفت عليه جملة من البلاد كقرطبة وما يجاورها ؛ واستعان عليهم بحلفائه من المسلمين . فكيف الله لذلك النصريّ صنعاً جميلاً ، قدمت العهود بمثله ؛ فنوزلت قرطبة ، وفتحت مدينة طاعة أخيه . ولما أخذ مخنقها ونهكها الجوع ، استغاث أهلها بدون بطره ؛ فتحرك بمن تلخص له من النصرانية وبمددٍ من فرسان المسلمين قاصداً إقلاعه عن طليطلة ؛ فهجم عليه أخوه قبل وصوله إليه ، وهو على غير أهبة ؛ فهزمه بظاهر حصن منتيل ، وألجأه إلى الانحصار به ، ونازله ، وأحاط به . وضاق بالصبر ذرع المحصور ؛ فصانع قوماً من خدام أخيه ، وتوثق منهم في

تسبيب خلاصه ، كأنما أمره على ناسه . فلما تحصل بأيديهم ، وجهوا لأخيه من أعلمه ؛ فبادر إليه ، وقتله في أخريات رمضان من سنة ٧٦٩ .
واستولى إنريق على ملك قشتالة وليون ؛ وهو بها إلى الآن ، معمورٌ بفتنةٍ عظيمةٍ وحروبٍ دائمةٍ ، هنيءَ المسلمون لها بردٌ الحياة ، وجلت نعم الله لدينهم . والله المسؤول في صلة إلطافه للمسلمين ، وإجمال صنائعه للدين بفضله!

ونشير بعد هذا إلى نسل ملوك برتقال في سبيل الإلماع والإشارة ، فنقول :

أول من انفرد بملك برتقال ، واقتطعه من ليون وقشتالة القمز إنريقِ الذي تزوج بنت ألفنش ملك قشتالة وليون ؛ وقد نبه عليه . ثم ملك بعده ابنه ألفنش وتسمى دوقاً ، ثمً بعد ذلك مَلِكاً ، بإذن البابا القسيس الأعظم برومة . ثم ملك بعده دون شانجه . ثم ملك بعده دون ألفنش بن دون شانجه . ثم ولي بعده ابنه دون شانجه ابن دون ألفنش ، وخلع عن الملك . ثم ملك عوضاً منه أخوه دون ألفنش . ثم ملك بعده دونيش بن دون ألفنش . ثم ملك بعده دون ألفنش . يقول الحكيم : وهو الآن ملك بأرض برتقال . قلت : وهذا هو الذي أمد صاحب قشتالة يوم طريف بنفسه ؛ وكان مصافه بإزائنا أهل الأندلس ، وحملنا عليه ، وكدنا نفضه لولا أنهم جعلوا جيشاً وراءهم فاصلا عن الملكين ، يمد من ظهر به اختلال وتضعضع ، فبادر إلى عدونا ؛ فقوّاه وسبب له الظهور . ولما مات ، تولى الملك بعده ولده ؛ ولم تطل مدته ؛ فهلك ؛ قتله فيما سمعنا دب أو خنزير بري حاول

صيده . ثم ملك بعده ابن له فوق المحتلم ؛ وهو ملك برتقال الآن ؛ واسمه دون بطره .

وإذ فرغنا منهم ، فنشير كذلك إلى ملوك أرغون وبرجلونة ؛ فنقول : أَوَّلُ من انفرد بها ، واقتطعها ، دون رميرة ابن ملك نبارة ، حسبما نبه عليه قبل ؛ وهلك قتيلاً في حربٍ للمسلمين . وتولى بعده أخوه شانجه ، ونازل مدينة وشقة من مدن الإسلام بشرق الأندلس ؛ فأصيب بسهمٍ قضى عليه . وملك بعده ابنُه دون بطره . ثم ملك بعده أخوه دون ألفنش ، ثم ولي بعدُ أخوهما دون رَميرُهْ ؛ وكان مونجاً أي صالحاً عابداً . ولما هلك ، ملكت بعده ابنته ، وصيّرت المُلْكَ إلى زوجها دون ريمونْدُه ؛ فملك أرغون لذلك . ثم هلك ؛ فولي بعده دون ألفنش قُمْز برجلونه . وملك بعده ابنه دون بطره بن دون ألفنش . ثم ولي بعده دون جايمش ، وهو الذي ملك مدينة بلنسية من يدي أبي جميل زيان بن مردنيش وغيرها من الجهات . ثم ملك بعده ابنه دون بطره . ثم ولي بعده ابنه دون ألفنش . ثم ملك بعده دون جايمش بن دون بطره أخوه ؛ وهو الذي نازل المرية على عهد نصرٍ من بني نصر ؛ كان شهير القوة والرأي والعزيمة . ثم ولي بعده ابنه ألفنش ابن دون جايمش . وولي بعده دون بطره بن دون ألفنش ؛ وهو ملك أرغون إلى اليوم . انتهى تأريخهم * .

---

* يلاحظ القارىء لهذا النص/ الملحق أنه يحمل عدّة دلالات في ما يخصّ المسائل الرئيسية لموضوع بحثنا ، فهو يعدّ شاهداً على التفاعل الثقافي الذي حدث على أرض الأندلس ، والعلاقات الثقافية بين الأندلسيين والأوروبيّين ، إذ يتبيّن لنا أنّ لسان الدين

ابن الخطيب كان على علاقة جيّدة مع عدد من ملوك قشتالة والوزراء والسفراء والأطبّاء الذين كانوا يعملون في بلاطهم ، ويكشف هذا النصّ كذلك عن دور من وصفناهم سابقاً بأصحاب الثقافة المزدوجة أو المتعدّدة ممّن يعملون تارة في بلاط المسلمين وتارة في بلاط القشتاليين أو الأوروبيّين ، في تقوية العلاقات الثقافية بين الأندلسيّين والأوروبيّين ، وهو ما نلحظه جلياً في دور يوسف بن وقار الإسرائيلي الطليطلي ، طبيب قشتالة وأستاذ علمائها ، حسب وصف لسان الدين بن الخطيب ، ولم يتورّع ابن الخطيب عن وصفه بالشيخ الحكيم ، وكذلك إشارته إلى اليهودي الحكيم ابن زرزار .

ومما يدلّ عليه هذا النصّ أيضاً اعتماد العلماء الأندلسيّين على مؤلّفات القشتاليين ورسائلهم والإحالة إليها ، وترجمتها إلى العربيّة ، ممّا يكشف عن معرفة علماء الأندلس للّغة القشتالية ، ويتجلّى ذلك واضحاً من كثير من المفردات القشتالية التي استخدمها لسان الدين بن الخطيب في هذا النصّ ، فبالإضافة إلى أسماء الأماكن والأشخاص الواردة في النصّ وغالبيّتها قشتالية ، نجد ابن الخطيب يستخدم مفردات قشتالية مثل : إفانْتِ بمعنى ولد السلطان وهو بالإسبانية infante ، وانبراذور بمعنى سلطان السلاطين (امبراطور) وهو بالإسبانية emperador ، ومنّجا بمعنى الراهب وهو في الإسبانية monje ، ودوقيش بمعنى الحكام ، وهي بالإسبانية duques ، وكورتِ بمعنى مجلس الشورى وهو بالإسبانية Corte ، وبابَ بمعنى القسّ الأعظم (البابا) وهو بالإسبانية papa ودون ودونه بمعنى السيّد والسيّدة في حال التبجيل وهو في الإسبانية Dona و Don ، وأسماء الشهور الروميّة جميعها . وغير ذلك .

ويكشف هذا النصُّ أيضاً عن استخدام لسان الدين بن الخطيب للتقويم المسيحيّ فيه ، لأنّ النصَّ يؤرّخ لملوك قشتالة وليون وأراغون والبرتغال وبرشلونه الذين يستخدمون التأريخ الميلادي ، ولأنّ النصَّ ممّا قيّده سفيرُ ملك قشتالة إلى غرناطة يوسف ابن وقار الإسرائيلي الطليطلي . ولم يشر ابن الخطيب للتاريخ الهجري إلاّ في حالات قليلة ، إذ كان معظم اعتماده على التأريخ الميلادي الذي أطلق عليه اسم «تاريخ الصُّفْر» .

فهرس المحتويات


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com